الفصل الخامس عشر

في

مذهب الجاحظ في الاعتزال

عرفت مما بسطناه لك في الفصل السابق، كيف نشأ الاعتزال في الاسلام، ووقفنا بك على السبب الذي من أجله فارق واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد رأسا المعتزلة مجلس الحسن البصري شيخهما، وعلة تسميتهم بهذا الاسم، كما عرفت العقيدة التي يدينون الله بها، ووقفت على أصولهم التي تواضعوا عليها، وآرائهم التي شعبوها عنها في مختلف المقاصد التي انتحوها. وأنت ترى معي أن المسألة قد كانت في بداءة الأمر من المسائل الاجتهادية التي إن أثيب فيها المصيب على إصابته، لم يأثم فيها المخطئ على خطائه. ومع هذا فقد نشأت عنها أحداث ونجمت غِيَر، وثارت فيها مناظرات، وقامت عليها سوق الجدل، وتشعبت أنحاء، وتفرعت فكر، وتولدت مذاهب، وافترقت نحل.

ولما كان الجاحظ من شيوخ المعتزلة ورؤسهم ومن ذوي الرأي الصائب، والنظر النافذ فيهم، فقد انفرد من بينهم بآراء خاصة، تابعه عليها قوم منهم تسموا « بالجاحظية » فكان شيخ مذهب فيهم ورأس فرقة منهم. وليس فيما هو متداول من كتبه ما يمكن استخراج مذهبه الاعتزالي منه، لأن كتبه التي وَضعها في هذا الباب قد بادت مع ما باد من جمهور مؤلفاته. غير أن بعض الرواة والمؤرخين قد رووا له آراء في المذهب، ونحلوه أقوالا لا نرى بدا من عرض خلاصتها، ملقين تبعتها عليهم، إن حقاً فحق وإن بطلا فبطل.

ثم نعقب عليها بما قد نراه مما يظهر زيفها من صحيحها . على أنه يجب أن تعرف ، غير شاك ولا مستريب ، أن أكثر هؤلاء الرواة إنما هم من خصوم المعتزلة ، وممن نصبوا أنفسهم للطعن فيهم والنيل منهم .

ناهيك بعداوة ابن الراوندى[١] والبغدادى[٢] وابن حزم ، والشهرستانى[٣] - فقد زعم هؤلاء أن الجاحظ كان يقول :

(١) إن المعارف كلها ضرورية طِباع ، وليس شئ منها من أفعال العباد ، وإنما وقعت منهم طِباعا ، وليس لهم فيها اختيار على الحقيقة ، وانما تنسب إليهم على أنها وجبت بإرادتهم ، فإنه ليس للعبد كسب سوى الإرادة .

(٢) ليس بجائز أن يبلغ أحد ولا يعرف الله تعالى .

(٣) الكفار بين معاند وبين عارف قد استغرقه حبه لمذهبه ، فهو لا يُشكر بما عنده من المعرفة بخالقه ، وبصدق رسله .

(٤) مُحال أن يُعدم اللهُ الأجسامَ بعد وجودها ، وإن أوجدها بعد عدمها . ولا يمكن البتة إفناؤها إلا أن يُرققها ويفرق أجزاءها فقط . فالأعراض تتبدل ، والجواهر يستحيل عليها الفناء .

---

(١) هو ابو الحسين أحمد بن يحيى الزاوندى ، كاتب فيلسوف متردد الرأى كثير التنقل فى المذاهب يرمى بالزندقة . ويروى أنه مات على توبة سنة ٢٩٨ هـ

(٢) هو أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التيمى البغدادى صاحب كتاب « الفرق بين الفرق » الذى نشره بالطبع صديقنا العلامة الدكتور محمد بدر سنة ١٩١٠ توفى البغدادى سنة ٤٢٩ هـ

(٣) هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى صاحب كتاب « الملل والنحل » عالم فاضل وفقيه محقق ، ومتكلم نظار . ولد بشهرستان سنة ٤٤٩ هـ وتوفى بها سنة ٥٤٨ هـ

(٥) ليس للإرادة أصل، ولكنها جنس من الأعراض إذا انتفى السهو عن الفاعل ، وكان عالما بما يفعله ، فهو المريد على التحقيق . وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النفس اليه .

(٦) جائز أن يوصف الله تعالى بأنه مريد ، بمعنى أنه لا يصح فى حقه السهو فى أفعاله ولا الجهل بها ، ولا يجوز أن يُغلب أو يُقهر.

(٧) إن الله لا يُدخل النار أحداً ، وإنما النار هى التى تجذب أهلها إليها بطبيعتها ، ثم تمسكهم فيها على الخلود ، وليس معنى الخلود أن يُصْلَوْا فيها عذابا أبدا ! و إنما هم يصيرون إلى طبيعتها .

(٨) إن للأجسام طبائع وأفعالا مخصوصة بها .

(٩) إن القَدَرَ خيره وشره من العبد .

(١٠) إن الخلق كلهم من العقلاء عالمون بأن الله تعالى خالقهم ، وعارفون بأنهم محتاجون الى النبى ، وهم محجوجون بمعرفتهم . ثم هم صِنفان : عالم بالتوحيد ، وجاهل به : فالجاهل معذور ، والعالم محجوج .

(١١) إن من دان بالاسلام وجب عليه أن يعتقد أن الله تعالى ليس بجسم ، ولا صورة ، ولا يُرَى بالأبصار ، وأنه عدل لايجور ، وأنه لايريد المعاصى . فإن أقر بذلك كله — بعد الاعتقاد والتبيين — فهو مسلم حقاً . و إن عرف ذلك كله ثم جحده وأنكره ، أودان بالتشبيه والجبر ، فهو مشرك كافر حقا . و إن لم ينظر فى شىء من ذلك واعتقد أن الله تعالى ربه ، وأن محمداً رسول الله ، فهو مؤمن ، لالوم عليه ولاتكليف غير ذلك.

وقد تَقَوَّلُوا على الجاحظ غير ذلك أقاويل أخر، ردها أنصاره ، ودفعها أشياعه . ومن استخف ما تقولوه عليه ما رواه الشهرستانى منسوباً الى ابن

الراوندى ونقله المقريزى[١] عن الشهرستانى ، أنه كان يقول : إن القرآن المنزل من قبيل الأجساد ، ويمكن أن يصير مرة رجلا ، ومرة حيوانا ...؟! ولا شك فى أن هذا افتراء محض وكذب صراح ، فما كان مثل الجاحظ يتنزل إلى هذا الدرك من السخف ، أو يسف إلى هذا الحضيض من الهراء ! ولا أدرى كيف روى الشهرستانى هذه الفرية الجاهلة عن ابن الراوندى ، دون تزييفها وإبانة دغلها ، مع أن أبا الحسين الخياط[٢] قد استصفى فى كتابه « الانتصار » كل مطاعن ابن الراوندى فى المعتزلة ، وفى صدرهم الجاحظ ، وجاء فيه بما رماهم به من المساوىء والمثالب ، وردها عليه ، واحدة فى إثر واحدة ، بالحجج القاطعة والبراهين الدامغة ، ومع هذا لم يرد لهذه القولة المفتراة أى أثر فى تقولات ابن الراوندى على الجاحظ . كذلك قد روى الامام أبو الحسن الأشعرى جميع أقوال المعتزلة ، جليلها ودقيقها ، فى كتابه « مقالات الاسلاميين » بكل دقة وحرص ، ولم يرد لهذه الأكذوبة أى إشارة . وها هو ابن قتيبة وابن حزم والبغدادى ، وكلهم خصم للجاحظ ، لم ينسبوا إليه شيئاً من هذا الرأى الفائل . ولو أن أحدا منهم عثر للجاحظ على شىء من هذا ، ولو من طريق الإيماء والتعريض ، لملأ الدنيا تشنيعاً عليه ،

---

(١) هو تقى الدين احمد بن على بن عبد القادر المقريزى المؤرخ المصرى الشهير صاحب كتاب « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المعروف بخطط المقريزى . وكان من المتفننين فى العلوم . ولى حسبة القاهرة زمناً . وكان مولده سنة ٧٦٩ هـ وتوفى سنة ٨٤٠هـ .

(٢) هو ابو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط صاحب كتاب « الانتصار » الذى يرد به على ابن الراندى . كان من أكابر المعتزلة وأعيان المتكلمين ، وكان من العلم والفضل وقوة الحجة على جانب عظيم ، وكان مع هذا فقيهاً محدثا كثير الحفظ . وكان يفضل على بن أبى طالب على جميع الصحابة توفى سنة ٣٠٠هـ

وتحقيرا له ، وطعنا فيه . ألحق أنها فرية كاذبة لا يصح أن تصدر من عاقل ، لا ولا من مأفون .

وفى تعليق لأبى الحسين الخياط على مفتريات ابن الراوندى على الجاحظ فى قوله « محال أن يعدم الله الأجسام بعد وجودها » يقول ابن الراوندى: ومتى استحال أن يعدم الجسم بعد وجوده، إستحال أيضا وجوده بعد عدمه.

فقال الخياط : وهذا كذب على الجاحظ عظيم، وذلك أن قول الرجل إنما يعرف بحكاية أصحابه عنه أو بكتبه ، فهل وجد هذا القول فى كتاب من كتبه ؟ فان كتب عمرو الجاحظ معروفة مشهورة فى أيدى الناس ! أوهل حكاه عنه أحد من أصحابه ؟ فاذا كان الرجل ميتاً فكتبه وأصحابه تخبر بخلاف ماقرفه به هذا الماجن الكذاب . فقد تبين كذبه وبهته وجهله . و بعد فمن قرأ كتاب عمرو الجاحظ فى الرد على المشبهة ، وكتابه فى الأخبار و إثبات النبوة ، وكتابه فى نظم القرآن ، علم أن له فى الاسلام غَنَاء عظيما لم يكن الله عز وجل ليضيعه له.

قلت : ولا ضير على الجاحظ ، إن كان قد قال ببقاء المادة وعدم تلاشيها، فان هذا القول قد أصبح فى عصرنا هذا مذهباً معروفا، يسلم به ويدين بصحة أسسه ، الكثير من أكابر العلماء وفحول أهل البحث والنظر، فى أوربا وأمريكا وغيرهما من قارات الدنيا ، ولهم على صحته من الأدلة والبرهانات المبنية على البحث العلمى والاستقراء الطبيعى، ما لاسبيل إلى دفعه أو إضعافه . اللهم إلا إذا جاءنا الزمن ، وهو أبو العجب، من الغوامض العلمية التى تظهر آنا بعد آن ، بما لم يخطر على البال ، فينتصر المذهب الروحى على المذهب المادى . غير أن المذهب المادى لا يزال من المشاهد أن له السيادة الصحيحة حتى الآن . فإذا سلمنا بأن الجاحظ كان قد ارتآى هذا الرأى واعتنق هذا

المذهب ،ولم يلصقه بابن الراوندى إلصاقا ، كان له فضل السبق الى كشفه والقول به منذ أحدعشر قرنا .

وكان ابن الراوندى مايزال يرمى المعتزلة بالشُّنع ، ولايتورع فى الكذب عليهم ، ووضع المآثم والمآخذ على ألسنتهم . وكان قد رمى الجاحظ ببغض الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فرد عليه الخياط بقوله :

وأما رميك للجاحظ ببغض الرسول ، فهو دليل على أنك لا تعرف المحب من المبغض ، ولا الولى من العدو . لأنه لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة ، بلغ فى ذلك ما بلغه الجاحظ ، ولا يُعرف كتاب فى الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد صلى الله عليه وسلم على نبوته ، غير كتاب الجاحظ . وهذه كتبه فى إثبات الرسالة ، وكتبه فى تصحيح مجىء الأخبار ، مشهورة . وهل يستدل على حب الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإيمان به وتصديقه فيما جاء به ، بشىء أوكد مما يستدل به على حب الجاحظ الرسول وتصديقه إياه ؟ !

قلت : ومن أقوى الأدلة وأبرعها على أن الجاحظ كان أتقى من أن يرمى بما رماه به ابن الراوندى فى شأن الرسول ، أنه صحح النسب الشريف وأثبت أنه فوق كل نسب شرفا وطهراً ، وأظهر كذب النسابين وخطأهم ، فيما رويناه لك فى فصل مضى من هذا الكتاب

الفصل السادس عشر

في

شأن الجاحظ مع ابن الزيات وابن أبي دؤاد

كان الجاحظ ذا حظوة عند رجال الدولة العباسية ، وكانوا جميعاً يقدرون فضله ، ويعجبون به ويكبرون شأنه ، ويجلون ما اختص به من المعارف الواسعة وما طبع عليه من لطف المعشر ، وجميل السمر ، وتدفق النوادر والفكاهات. ولم يكن واحد منهم إلا ويتمنى أن يكون الجاحظ إلى جانبه وفي جملته . غير أن الجاحظ كان هواه في أشخاص دون آخرين . ولهذا آثر أن يفضل جانب ابن الزيات الوزير على جانب ابن أبي دؤاد القاضي . وقد كانت الدسائس تدب عقاربها ، والوشايات تعمل عملها ، بين الوزير والقاضي ، فلما ظهرت العداوة والبغضاء منهما ، واتسعت هوة الشنآن بينهما ، سُعي بابن الزيات حتى قبض عليه ، ففر الجاحظ ، فقيل له : لم هربت ؟ فقال : خِفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور ؟!

يشير إلى التنور الذي صنعه ابن الزيات وجعل في جوفه المسامير ليعذب به خصومه ، فعذب هو فيه ، فيما قيل ، حتى مات .

ثم عُثر على الجاحظ وجيء به إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، فدخل عليه مغلول العنق بسلسلة ، مقيد الرجلين ، في قميص سَمَلٍ . فلما وقع نظره عليه قال : والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنيعة ، معدناً للمساوئ وما فُتِنّي باستصلاحي لك ولكن الأيام لا تصلح منك ، لفساد طويتك

ورداءة دِخلتك، وسوء اختيارك ، وغالب طبعك.

فقال الجاحظ : خفض عليك أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لى عليك ، ولأن أسيء وتحسن أحسن فى الأحدوثة من أن أحسن وتسيء ، ولأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجمل بك من الانتقام منى.

فقال له ابن أبى دؤاد : قبحك الله ، والله ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت بيانك أمام قلبك ثم اضغنت فيه النفاق والكفر . ما تأويل هذه الآية « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ القُرَى وَهِىَ ظالِمَة إِن أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » ؟

قال الجاحظ : تلاوتها تأويلها ، أعز الله القاضى !

فقال: جيئوا بحداد !

فقال: أعز الله القاضى، ليفك عنى أو ليزيدنى ؟!

فقال: بل ليفك عنك .

فجيء بالحداد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساقه ويطيل أمره قليلا، فلطمه الجاحظ وقال : إعمل عمل شهر فى يوم ، وعمل يوم فى ساعة ، وعمل ساعة فى لحظة ، فإن الضرر على ساقى ، وليس بجذع ولا ساجة ! فضحك ابن أبى دؤاد وأهل المجلس منه. وقال القاضي لمحمد بن منصور[1]

(١) هو محمد بن منصور بن زياد . وكان يلقب (فتى العسكر) وكان فى أول أمره كاتبا للبرامكة ثم تنقلت به الأحوال فى خدمة السلطان. قال أبو العيناء: إنه كان يلى قضاء فارس وخوزستان إلى أن صار من سراة الدولة وعظمائها. ولأبى يعقوب الخريمى فيه وفى آله مدائح ومراث حسان ، ومدحه أشجع السلمى ورأى ازدحام الناس على بابه فقال :

على باب ابن منصور علامات من البذل
جماعات وحسب البا ب نبلا كثرة الأهل

وكان حاضراً : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ؟ ! ثم قال : يا غلام ، صر به إلى الحمام وأمط عنه الأذى .

فنزع عنه الغل والقيد ، وأدخل الحمام وحمل إليه تحت من الثياب وطويلة وخف ، فلبس ذلك . ثم جاءه فصدره فى المجلس ثم أقبل عليه وقال : هات الآن حديثك يا أبا عثمان ؟ !

قلت : أنظر إلى هذه الأخلاق الراقية ، والنفوس الزاكية ، وإلى هذه القلوب الكبيرة ، والصدور الرحبة ! أحمد ابن أبى دؤاد — وهو من صدور الدولة ، وجباه الملة ، ورؤس الأمة — يعامل الجاحظ — وهو الذى مالأ عليه عدوه الألد ، وناصر خصمه الأشد — بهذه المعاملة النبيلة ، وينزله منه هذه المنزلة الجليلة ؟ إن هذا لهو الخلق الكريم ، إن هذا لهو الفضل العظيم . وهل أكرم فى الجاحظ إلا علمه ؟ وهل آثر منه إلا فهمه ؟ وهل أجل إلا أدبه ؟ وهل أعظم إلا بيانه ولسنه ؟ !

ثم أدر طرفك فى أهل هذا الزمن ، فهل ترى من هاتيك الفضائل طرفا فى أمير أو وزير ؟ وهل تجد من تلك الشمائل أثرا فى عظيم أو كبير ؟ وهل أحسست منهم إلا نفوساً دنيئة ، وقلوباً وبيئة ، وصدورا يضطرب فيها الغل ، ويصطخب الحقد والضغن ؟ !

أَرَى زَمَناً نَوْكَاهُ أَكْرَمُ أَهْلِهِ ... وَلَكِنَّمَا يشقَى بِهِ كلُّ عاقلِ (١)

يَمَشِى فَوْقَهُ رِجْلاهُ وَالرَّأْسُ تحتهُ ... فَكَبَّ الأعالِى بارتفاعِ الأسافِلِ

---

(١) النوك ، جمع أنوك ، والأنوك : الأحمق الذى لاخير فيه

الفصل السابع عشر

فى

رأى الجاحظ فى العروض والشعر

تعلق الجاحظ بالشعر ، وحاول التبريز فيه ، والتفوق فى مناحيه، تبريزه فى النثر وتفوقه فيه ، وارتقاءه إلى قمته ، وقبضه على ناصيته . ولكن الطبيعة أشد ضنًا من أن تبلغ بإنسان ذؤابة الكمال . ولذلك لم ينل من الشعر ما أمل ، ولم يبلغ فيه ما قدر ، فرجحت كفة ميزانه فى النثر ، وشالت أختها فى الشعر . وكان يقول : طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يعرف إلا غريبه ، فرجعت الى الأخفش فوجدته لا يحسن إلا إعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فرأيته لا ينقل إلا فيما اتصل بالأخبار وتعلق بالأنساب والأيام ؟ ولم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب[1] ومحمد بن عبد الملك الزيات .

---

(١) هو أبو على الحسن بن وهب بن سعيد الكاتب العالم الشاعر الأديب . وهو من ذلك البيت الذى تسلسل فى الكتابة للأمراء والوزراء والخلفاء من بنى أميه وبنى العباس ، وقد ظلت الوزارة فى هذا البيت أيام بنى العباس زمناً يتوارثونها كابرا عن كابر . وكان الحسن هذا يكتب أولا لمحمد بن عبد الملك الزيات ، ثم ترقت به الحال إلى أن تولى ديوان الرسائل ببغداد ، ثم تقلد البريد بالشام فى عهد المتوكل على الله العباسى . وله رسائل مدونه آية فى البلاغه ، وشعر غاية فى الجودة ، وكان مولده ببغداد سنة ١٨٦ هـ وتوفى فى حدود سنة ٢٤٧ هـ

وكان، وهو فى سبيل الطلب، مغرما بتعلم العروض ، مكبراً من شأنه . ولهذا كان يقول :

«العروض ميزان الشعر ومعياره ، و به يعرف الصحيح من السقيم ، والمعتل من السليم ، والقريض من الشعر ، و به يسلم من الأود والكسر »

فلما لم يبلغ فيه إربته ، ولم ينل منه بغيته ، ولم يتهيأ له فيه مراده، قال :

«العروض علم مردود ، ومذهب مرفوض، وكلام مجهول ، يستكد العقول ، بمستفعل ومفعول ، من غير فائدة ولا محصول »

وهذا من غريب التصرف فى ضروب الكلام ، الذى اختص به الجاحظ وفاق فيه غيره من سائر كتاب العربية ، وناهيك برجل يضع رسالة يفاضل فيها بين المسك والرماد ؟!

وعلى ذكر العروض وقول الجاحظ فيه ، أروى هنا قولا غريباً عثرت به لأحد علماء مصر ، وهو محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصارى الملقب شمس الدين ، قال : إن الشعر اليونانى له وزن مخصوص ، ولليونان عروض لبحور الشعر ، والتفاعيل عندهم تسمى الأيدى والأرجل . قال : ولا يبعد أن يكون وصل الى الخليل بن أحمد شىء من ذلك فأعانه على إبراز العروض الى الوجود .؟!

قلت : إذا صح أن الخليل بن أحمد كان يعرف اللغة اليونانية ، وكان يعرفها معرفة جيدة ، كان لهذا القول مكانه فى الصدق والصواب ، ويكون لهذا التظنى شىء من الوجاهة والسداد ، ولكن ذلك لم يثبت ، ولم يتقدم هذا الشيخ بالقول به أحد ، ولم يُعرف عن الخليل أن له أى إلمام بأية لغة غير العربية

وللجاحظ رأى فى الشعر ، وهل فى الامكان ترجمته إلى اللغات الأخرى ؟ أما هو فيقول :

وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب ، والشعر لا يُستطاع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حُول تقطع نظمه ، و بطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب منه ، وصار كالكلام المنثور . والكلام المنثور المبتدأ على ذلك ،أحسن من المنثور المنقول عن موزون الشعر . وقد نُقلت كتب الهند ، وتُرجمت حكم اليونان ، وحُولت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً ، و بعضها ما انتقص شيئاً . ولو حُولت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذى هو الوزن . ثم إنهم لو حولوها لم يجدوا فى معانيها شيئاً لم تذكره العجم فى كتبهم التى وضعت لمعاشهم وفِطَنهم وحِكمهم . وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن لسان إلى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها .

قلت : وهذا قول لاغبار عليه ، ورأى جدير بالنظر والاعتبار ، من كل مشتغل بهذا الفن ، أو متجه نحو هذه الفكرة . لأنه قول خبير ، ورأى عليم

الفصل الثامن عشر

فى

وصف مؤلفاته واحصائها

قال المسعودى : كتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارىء ، وسآمة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة . . . وسائر كتبه فى نهايه الكمال . . . ولا يُعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه

أقول : وقد اعتمدت فى ذكر مؤلفاته على ماذكره هو فى كتابه « الحيوان » وعلى ما أورده ياقوت فى كتابه « معجم الأدباء » وعلى ماعثرت به فى غيرها من الكتب والأسفار . وقد جهدت أن لا يقع فيها تكرار ، وإن كان النساخ الأقدمون قد جعلوا لبعض كتب الجاحظ عدة عناوين ، مما أجاز اللَّبس على كثير من الفارقين ، ومما يحول دون الاستقصاء الصحيح . كما أنه قد وُضع الكثير من الكتب معزوة إليه . غير أنه مما لا يصح أن يشك فيه ، أن هذا الثَّبَتَ أصح وأوفى وأوضح من غيره على صورة مطلقة . وقد رتبته على الحروف . واليك هو :

١

كتاب آل إبراهيم بن المُدَبِّر [١] فى المكاتبة

٢

كتاب آى القرآن

قال الجاحظ : جمعت فى هذا الكتاب آيات من القرآن يتعرف بها فرق ما بين الإيجاز والحذف ، وما بين الزوائد والفضول والاستعارات .

٣

رسالة فى إثم السكر

٤

رسالة إلى أبى النجم [٢] وجوابه

٥

كتاب إحالة القدرة على الظلم

٦

كتاب الإحتجاج لنظم القرآن

قال الباقلانى : وقد صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتابا لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى .

وهذا كلام فيه عهدة! لأن الباقلانى يريد أن يعلن أنه هو وحده الذى استطاع أن يبز المتقدمين فى الاحتجاج لإعجاز القرآن ونظمه .

---

(١) آل المدبر: هم أحمد ومحمد وإبراهيم. وكلهم كاتب بليغ وشاعر مجيد. وما منهم إلا من ولى الولايات الجليلة ، وعمل للسلطان الأعمال النافعة ، فى عهد الخلفاء العباسيين من المعتصم إلى المعتضد. ولأحمد وإبراهيم أخبار حسان

(٢) هو أبو النجم هلال الأنبارى مولى بنى سليم ومن أهل بغداد. وكان من الكتاب المترسلين . وكان ولده صالح كاتباً ، وولده أحمد شاعرا

٧

كتاب أحدوثة العالم

٨

كتاب الأخبار

وقد ذكر له كتابان آخران ، هما « كتاب الأخبار وكيف تصح »
وكتاب « تصحيح الأخبار » ولعل هذه الأسماء لمسمى واحد

٩

كتاب الأخطار والمراتب والصناعات

١٠

كتاب أخلاق الشُّطَّار

١١

كتاب أخلاق الفتيان وفضائل أهل البِطالة

ذكر هذا الكتاب فى كتاب التاج المنسوب إليه

١٢

كتاب أخلاق الملوك

١٣

كتاب الإخوان

١٤

كتاب الإستبداد والمشاورة فى الحرب

١٥

كتاب الإستطاعة وخلق الأفعال

وهو من الكتب التى وضعها فى تقرير مذهب الاعتزال

obeikandl.com

١٦

كتاب استطالة الفهم

ذكره القاضي شهاب الدين الخفاجي [١] في كتابه « طراز المجالس » وقال : كتاب صنفه الجاحظ وقد جمع فيه نبذا من كلام الحكماء والشعراء

١٧

رسالة في استنجاز الوعد

هذه الرسالة منشورة ضمن « مجموعة رسائل » المطبوعة بمصر سنة ١٣٢٤ وهي كذلك منشورة ضمن « الفصول المختارة » المطبوعة بهامش كتاب الكامل

١٨

كتاب الأسد والذئب

١٩

كتاب أصحاب الإلهام

٢٠

كتاب الأصنام

هو الكتاب الذي وضعه الجاحظ في ذكر الأصنام في الجاهلية وصحح فيه نسب النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ جد النبي صلى الله عليه وسلم

(١) هو الشيخ أحمد بن محمد بن عمر قاضي القضاة شهاب الدين الخفاجي المصري، أحد أفراد العلماء وأفذاذ الأدباء، صاحب التصانيف البارعة في العلم والأدب. ولي قضاء بلاد الروملي ثم قضاء سلانيك ثم ولي قضاء مصر. وعنه عزل ورحل إلى بلاد الروم ثم أعيد منفيا إلى مصر وبها عين قاضيا. وله من المؤلفات : شرح الشفاء، وشرح درة الغواص، وريحانة الألباء، وشفاء الغليل، وديوان الأدب، وطراز المجالس. وله رسائل ومقامات وأشعار تنطق ببراعته وتفوقه على أهل دهره. توفي بمصر عن نيف وتسعين عاما سنة ١٠٦٩ هـ

٢١

كتاب أصول الفُتيا والأحكام

٢٢

الاعتزال و فضله

لعل هذا هو الكتاب بعينه الذى ذكر باسم « فضيلة المعتزلة » والذى رد عليه ابن الراوندى بكتاب أسماه « فضيحة المعتزلة »

٢٣

كتاب افتخار الشتاء والصيف

٢٤

كتاب أفعال الطبائع

٢٥

كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات

٢٦

كتاب الإمامة على مذهب الشيعة

ولست أدرى هل هذا الكتاب هو الرسالة المطبوعة بمصر سنة ١٣٢٤ ضمن « مجموعة رسائل » بعنوان « بيان مذاهب الشيعة »؟ أم هو غيرها !

٢٧

كتاب إمامة معاوية بن أبى سفيان [١]

(١) هو معاوية بن أبى سفيان. أسلم بعد أبيه عام فتح مكة سنة ٨ ،وولى الشام بعد أخيه يزيد لعمر وعثمان . ثم كانت بينه وبين على بن أبى طالب أحداث وخطوب ووقائع وحروب بدعوى المطالبة بدم عثمان، وظل الشام فى يده إلى أن تنازل له الحسن بن على عن حقه فى الخلافة فاستولى عليها واستقام له الأمر، ودبر الملك بما طبع عليه من حكمة وسياسة ودهاء وخديعة ومكر ، إلى أن مات بدمشق سنة ٨١ هـ عن ثمانين سنة

قال المسعودى : لم يرض (الجاحظ) بهذا الكتاب المترجم بكتاب « العثمانية » حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر فى إمامة المروانية وأقوال شيعتهم! ورأيته مترجما بكتاب « أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان » فى الانتصاف من على بن أبى طالب وشيعته الرافضة ، يذكر فيه رجال المروانية ويؤيد فيه إمامة بنى أمية وغيرهم

٢٨

كتاب إمامةُ وُلد العباس[١]

قال المسعودى : وقد صنف الجاحظ كتاب « إمامة ولد العباس » يحتج فيه لهذا المذهب ويذكر فعل أبى بكر[٢] فى فَدَكٍ[٣] وغيرها، وقصته

---

(١) هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإليه ينتهى نسب العباسيين . كان إليه فى الجاهلية سقاية الحاج وزمزم. ثم دفعهما النبى إليه عام الفتح . وكان يوم العقبة مع النبى فعقد له على الأنصار . مات فى خلافة عثمان وقد كف بصره عن ٨٩ سنة

(٢) هو أبو بكر الصديق الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بويع له بالخلافة يوم سقيفة بنى ساعدة ، وقام بالبيعة له عمر بن الخطاب فقطع بذلك مادة الشر وحسم أسباب الخلاف بين المهاجرين والأنصار. ونهض أبو بكر بأعباء الخلافة خير نهوض ونهد لحروب الردة فكان فيها من الموفقين . مات سنة ١٣ هـ

(٣) هى قرية بالحجاز قريبة من المدينة ، كانت من الأملاك الخاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم . وذلك أن النبى بعث، بعد منصرفه من خيبر، إلى أهل فدك محيصة بن مسعود يدعوهم إلى الاسلام فوجدهم فى خوف ووجل بعد سقوط خيبر فى يد المسلمين، فصالحه أهلها، وعلى رأسهم زعيمهم يوشع بن نون، على نصف الأرض بتربتها ، فقبل ذلك منهم وأمضاه رسول الله . فكان خالصاً له دون سائر المسلمين، لأنه لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب. فلما انتقل

مع فاطمة رضى الله عنها ومطالبتها إياه بإرثها من أبيها صلى الله عليه وسلم ، واستشهادها ببعلها وابنيها وأم أيمن [١] وما جرى بينها و بين أبى بكر من المخاطبة ، وما كثر بينهما من المنازعة ، وما قالت وما قيل لها عن أبيها عليه الصلاة والسلام من أنه قال : « نحن معاشر الأنبياء نَرِث ولا نُورث » . وما احتجت به عليه من قوله عز وجل « وَوَرِثَ سُلَيمان داودَ » على أن النبوة لا تورث فلم يبق إلا التوارث . وغير ذلك من الخطاب .

قال المسعودى : ولم يصنف الجاحظ هذا الكتاب ولا استقصى فيه الحِجاج للراوندية وهم شيعة ولد العباس، لأنه لم يكن مذهبه ولا كان يعتقده ، لكن فعل ذلك تماجنا وتقربا

قلت : ولعله هو المسمى بكتاب « العباسية » وقد وقفت على وصية للعباس ألقاها إلى على بن أبى طالب حال وفاته ، رواها الصولى عن الجاحظ ، وأحسب أنها منقولة من هذا الكتاب ، ولهذا آثرت إثباتها هنا لأنها من جيد ما يروى . قال الجاحظ : إن العباس بن عبد المطلب أوصى على بن أبى طالب فى علته التى مات فيها فقال :

إلى الرفيق الاعلى وقام بالأمر من بعده أبو بكر، طالبته فاطمة بحقها فى ميراث أبيها من فدك فلم يورثها . ولمتكلمى الشيعة والمعتزلة فى هذا الشأن مجادلات ومناظرات فى تخطئة أبى بكر وتصويبه، ليس هنا محل بسطها . غير أن عمر ابن الخطاب لما تولى الخلافة دفعها إلى بنى هاشم فكانت فى يد على والعباس، فلما ولى معاوية أقطعها مروان بن الحكم، ثم وهبها مروان لعبد العزيز وعبد الملك ابنيه، ثم جمعها عمر بن عبد العزيز إليه وردها على بنى هاشم ، ثم دفعها المأمون إلى بنى فاطمة

(١) هى جارية تسمى بركة كانت لأم رسول الله ، ورثها منها واعتقها وتزوجها رجل من الخزرج يسمى عبيد فولدت له أيمن بن عبيد، ثم تزوجها زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد

أى بُنَيَّ ، إنى مشفق على الظعن عن الدنيا إلى الله الذى فاقتى إلى عفوه وتجاوزه ، أكثر من حاجتى إلى ما أنصحك فيه وأشير عليك به . ولكن العِرق نَبُوض ، والرحم عروض. وإذا قضيتُ حق العمومة فلا أبالى بعد . إن هذا الرجل — يعنى عثمان — قد جاءنى مراراً بحديثك ، وناظرنى مُلاينا ومُخاشنا فى أمرك ، ولم أجد منه عليك إلا مثل ما أجد منك عليه ، ولا رأيت منه لك إلا مثل ما أرى منك له ، ولستَ تُؤْتَى من قِلة علم ، ولـكن من قلة قبول . ومع هذا كله فالرأى الذى أُودعك به أن تُمسك عنه لسانك ويدك وهمزك وغمزك ، فإنه لا يبدؤك ما لم تبدؤه ، ولا يجيبك عما لم يبلغه ، وأنت المُتَجَنِّى وهو المتأنى ، وأنت العائب وهو الصامت .

فإن قلتَ : كيف هذا وقد جلس مجلسا أنا به أحق ؟ فقد قاربت . ولـكن ذلك بما كسبت يداك ، ونكص عنه عَقِباك . لأنك بالأمس الأدنى هروات إليهم تظن أنهم يُحَلُّون جيدك ، ويُختمون إصبعك ، ويَطئون عقبك ، ويرون الرشد بك ، ويقولون لابد لنا منك ، ولا مَعدِل لنا عنك ! وكان هذا من هفواتك الكبر ، وهَناتك التى ليس لك منها عذر . والآن ، بعد ما ثلمت عرشك ، ونبذت رأى عمك فى البيداء ، يتدهده فى السافياء .

خذ بأحزم ما يتوضح به وجهُ الأمر : لا تُشَارّ هذا الرجل ولا تُماره ، ولا يبلغنه عنك ما يُحنقه عليك . فإنه إن كاشفك أصاب أنصاراً ، وإن كاشفته لم تر إلا ضِرارا ، ولم تستلج إلا عثارا . واعرف مَن هو بالشام له ، ومَن ههنا حوله من يطيع أمره ، ويمتثل قوله . لاتغترر بناس يُطيفون بك ، ويَدَّعون الحنو عليك والحب لك ، فانهم بين مولى جاهل ، وصاحب متمن ، وجليس يرعى العين ويبتدر المحضر . ولو ظن الناس بك ما تظن

بنفسك لكان الأمر لك والزمام فى يدك . ولكن هذا حديث يوم مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فات ، ثم حَرُمَ الكلام فيه حين مات ، فعليك الآن بالعُزُوفِ عن شىء عَرضك له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يتم ، وتَصديت له مرة بعد مرة فلم يستقم ، ومن ساور الدهر غُلب ، ومن حرص على ممنوع تَعِب . فعلى ذلك فقد أوصيت عبدَ الله بطاعتك ، وبعثته على مُتابعتك ، وأوجرته محبتك ، ووجدت عنده من ذلك أظنى به لك . لا توتر قوسَك إلا بعد الثقة بهـا ، وإذا أعجبتك فانظر إلى سِيَتِها ، ثم لا تفوِّقْ إلا بعد العلم ، ولا تفرق فى النزع إلا لتصيب الرَّميَّة . وانظر لا تَطرف يمينُك عَينك ، ولا تَجن شمالك شَينك ، ودعنى بآيات من آخر سورة الكهف . وقم إذا بدا لك !

٢٩

رسالة فى امتحان عقول الأولياء

بعث بها الجاحظ إلى أبى الفرج بن نجاح

٣٠

كتاب الأمثال

٣١

كتاب الأمصار

لعل هذا الكتاب هو بعينه الذى ذكره المسعودى باسم كتاب « البلدان » وقد ذكرناه لاحتمال المغايرة

٣٢

رسالة فى الأمل والمأمول

٣٣

كتاب أمهات الأولاد

٣٤

كتاب الأُنس والسلوة

٣٥

كتاب الأوفاق والرياضات

٣٦

كتاب البخلاء

هذا الكتاب من أبدع ماخطته يد الجاحظ ، وهو خليق بأن يستخرج منه بحث طريف فى أصول التدبير المنزلى، وفى استثمار المال، والانتفاع بحقائر الاشياء . وهو مطبوع فى مصر سنة ١٣٢٣ هـ

٣٧

كتاب بصيرة غنام المرتد

٣٨

كتاب البلدان

قلنا إن هذا الكتاب قد يكون هو بعينه كتاب « الأمصار » المار ذكره، ولكنا ذكرناه لاحتمال المغايرة

٣٩

كتاب البيان والتبيين

وضع الجاحظ هذا الكتاب الجليل وقدمه إلى القاضى أحمد بن أبى دؤاد، أحد عظماء الدولة العباسية، وأجازه القاضى عليه بخمسة آلاف دينار . وزعم ياقوت أن الجاحظ وضع من هذا الكتاب نسختين كانت الثانية منهما أصح وأجود. وقد أجمع المتقدمون من أكابر العلماء وأفاضل الأدباء، على أنه من أفضل ما وُضع فى الأدب. قال المسعودى: وللجاحظ كتب حسان ، منها كتاب « البيان والتبيين » وهو أشرفها، لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم ، وغرر

الأشعار ، ومستحسن الأخبار ، و بليغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به . وقال ابن خلدون [١] : سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين . وهى : « أدب الكاتب لابن قتيبة » وكتاب « الكامل للمبرد » وكتاب « البيان والتبيين للجاحظ » وكتاب « النوادر لأبى على القالى »[٢] وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها .

وقد طبعت فى القسطنطينية سنة ١٣٠١ بمطبعة الجوائب مجموعة باسم « خمس رسائل » ضمنها كتاب « منتخبات البيان والتبيين » ولم يذكر الناشر اسم من انتخبه ، غير أنه زعم أنه للجاحظ . ولم يُعرف عن الجاحظ أنه تعرض لشىء من كتبه بالانتخاب أو الاختيار أو التلخيص أو الاختصار . مع أن هذا المنتخب غير جيد ولا حسن . ولا هو خيرة ما فى البيان والتبيين

ولما كان أبى رحمه الله كثير الحث لى على قراءة كتاب البيان والتبيين وكان يوجب على استظهار ما يمكننى استظهاره من منثوره ومنظومه ، فقد ولعت به منذ الصغر . وكنت كثير الاستياء من طبعاته التى ظهر بها . لهذا رأيت أن أضبط ما يستحق الضبط من عباراته ، وأعلق عليه الحواشى والتعليقات ، وأبين

(١) هو ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمى الفاسى المؤرخ الشهير . وهو أول من وضع قواعد علم الاجتماع والعمران من علماء العرب . ولد بمدينة فاس وتولى هناك كثيرا من الأعمال السلطانية ، ثم حضر إلى مصر وتولى قضاء المالكية فى البيبرسية . ومات فى رمضان سنة ٨٠٨ هـ

(٢) هو أبو على اسماعيل بن القاسم بن عيذون القالى نسبة إلى بلد بأرمينية تسمى قالى قلا . ولعلها هى المعروفة الآن بكليكية . كان من أكابر الأدباء وأفاضل اللغويين . وهو صاحب كتاب الأمالى والذيل والنوادر المشهور . ولد بديار بكر سنة ٢٨٨ هـ وتوفى بقرطبة سنة ٣٥٦ هـ

بقدر الحاجة ماغمض من معانيه . فلما تم لى ذلك طبعته فى سنة ١٩٢٦ ١٩٢٧ فى ثلاثة أجزاء. ثم ها أنا ذا فى سبيل وضع شرح له أوفى و بيان أتم، وسأعيد طبعه قريباً إن شاء الله تعالى فى صورة أبدع وأجمل ، نسأل الله العون .

٤٠

رسالة فى بيان مذاهب الشيعة

هذه الرسالة مطبوعة ضمن « مجموعة رسائل » بمصر سنة ١٣٢٤ وقد قلنا فيما سلف إنها قد تكون كتاب « الامامة على مذهب الشيعة » . ولكنا ذكرناها هنا لاحتمال المغايرة

٤١

كتاب تحصين الأموال

٤٢

كتاب التربيع والتدوير

هذا الكتاب طرفة من طرف الجاحظ ، وضعه يتندر به على صاحبه أحمد بن عبد الوهاب ، و يصف ما هو عليه من دمامة الخَلق وقبح التركيب، ودعواه أنه جميل الصورة معتدل الخلق حسن التركيب ، و يعاييه بمائة مسألة يطلب اليه الجواب عنها . وأكثر هذه المسائل من الخرافات والأساطير، ولكنها تملك على النفس مشاعرها لسمو العبارة ودقة المعنى . طبع هذا الكتاب مع رسالة « مناقب الترك » ورسالة « فخر السودان على البيضان » بلندن سنة ١٩٠٣ ثم طبع بمصر ضمن « مجموعة رسائل » سنة ١٣٢٤ هـ

٤٣

كتاب تصويب على فى تحكيم الحكمين

يظهر أنه لم يبق من هذا الكتاب إلا هذه القطعة التى عثرنا بها

بعد الجهد الجهيد ، وهى تعطى صورة من الطريقة التى تبعها الجاحظ فى الاعتذار لعلى فى قبوله التحكيم . قال الجاحظ : من عرفه (يعنى على) عرف أنه غير ملوم فى الانقياد معهم الى التحكيم ، فإنه مَلَّ من القتل وتجريد السيف ليلا ونهاراً حتى ملت الدماء من إراقته لها ، وملت الخيل من تقحُّم الأهوال بها ، وضجر من دوام تلك الخطوب الجليلة ، والأرزاء العظيمة ، واستلاب الأنفس ، وتطاير الأيدى والأرجل بين يديه ، وأكلت الحرب أصحابه وأعداءه ، وعطلت السواعد ، وخدرت الأيدى التى سلمت من وقائع السيوف بها ، ولو ان أهل الشام لم يستعفوا من الحرب ، ولم يستقيلوا من المقارعة والمصادمة ، لأدت الحال إلى قعود الفيلقين معاً ، ولزومهم الأرض ، وإلقائهم السلاح . فان الحال أفضت بعظمها وهولها إلى ما يعجز اللسان عن وصفه

٤٤

كتاب التفاح

٤٥

كتاب تفضيل صناعة الكلام

قال المسعودى : وهى الرسالة المعروفة بالهاشمية

٤٦

رسالة فى تفضيل النطق على الصمت

هذه الرسالة ضمن «مجموعة رسائل» طبعت بمصر سنة ١٣٢٤

٤٧

كتاب التفكر والاعتبار

٤٨

كتاب التمثيل

٤٩

كتاب جمهرة الملوك

٥٠

كتاب الجوابات

٥١

كتاب جوابات كتاب المعرفة

٥٢

كتاب الجوارى

٥٣

رسالة الحاسد والمحسود

مطبوعة ضمن «مجموعة رسائل» بمصر سنة ١٣٢٤ هـ

٥٤

كتاب حانوتْ عطار

٥٥

كتاب الحجات

ذكره القاضى شهاب الدين الخفاجي فى كتابه «طراز المجالس»

٥٦

كتاب الحجة فى تثبيت النبوة

٥٧

كتاب الحجر والنبوة

٥٨

كتاب الحزم والعزم

obeikandl.com

٥٩

كتاب حكاية قول أصناف الزيدية

٦٠

رسالة الحلبة

٦١

كتاب حيل اللصوص

زعم أبو منصور البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » ان الجاحظ علم بهذا الكتاب الفسقة وجوه السرقة . وهو قول خصم بعيد من الانصاف. ولو قدر لنا الاطلاع على هذا الكتاب لعرفنا مكان هذا القول من الحق أو الباطل

٦٢

كتاب حيل المُكَدِّيْنَ

ذكره أبو منصور البغدادى فى كتابه

٦٣

كتاب الحيوان

وضع الجاحظ هذا الكتاب وقدمه إلى محمد بن عبد الملك الزيات الوزير، فاجازه عنه بخمسة الآف دينار . وهو من كتب الجاحظ الجيدة الحافلة بصنوف المعارف وضروب الآداب . وقد قال أبو منصور البغدادى: وهو كثير النيل من أبى الجاحظ والافتراء على جمهور المعتزلة : وقد سلخ فيه معانى كتاب الحيوان لأرسطاليس وضم اليه ما ذكره المدائنى [1] من

(١) هو أبو الحسن على بن محمد بن عبد الله بن أبى سيف المدائنى، مولى عبد شمس بن عبد مناف . كان من أكابر الاخباريين وأفاضل الرواة والمؤلفين

حكم العرب وأشعارها فى منافع الحيوان

قلت : بالرغم من هذا فالكتاب يعد من مفاخر الجاحظ ومحاسنه . وقد عرض له قوم بالاختصار والتلخيص، فاختصره عبد اللطيف البغدادى [١] فى كتاب سماه « اختصار كتاب الحيوان » ولخصه ابن سناء الملك الشاعر المصرى [٢] فى كتاب سماه « روح الحيوان » . وكتاب الحيوان طبع بمصر فى سبعة أجزاء سنة ١٣٢٥هـ ١٩٠٧م

٦٤

رسالة فى الخراج

بعث بها الجاحظ إلى أبى النجم

٦٥

كتاب خصومة الحول والعور

٦٦

كتاب خلق القرآن

وكان متكلما جدلا، أخذ علم الكلام عن معمر بن الأشعث . وكان منقطعا إلى إسحق بن إبراهيم الموصلى وفى منزله توفى سنة ٢٢٥ هـ عن ٩٣ سنة

(١) هو موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادى كان من أفاضل الأطباء واعيان العلماء مع إحاطة بعلوم الدين والنحو والفلسفة والتاريخ والمنطق . ولد ببغداد سنة ٥٥٧ وحضر مصر ووضع بها مؤلفا وصف فيه المجاعة الكبرى والقحط الجائح الذى كان بمصر فى عهده ثم عاد إلى بغداد وبها مات سنة ٦٢٩ هـ

(٢) هو السعيد أبو القاسم هبة الله بن الرشيد المعروف بابن سناء الملك الشاعر المصرى المعروف صاحب الموشحات البارعة . وكان من الأفاضل النبلاء . تولى ديوان الانشاء زمنا . وله كتاب « روح الحيوان » اختصر فيه كتاب الحيوان للجاحظ . ولد سنة ٥٥٠ هـ وتوفى سنة ٦٥٨ هـ

٦٧

كتاب الدلالة على أن الإمامة فرض

٦٨

كتاب ذكر ما بين الزيدية والرافضة

٦٩

رسالة فى ذم أخلاق الكتاب

عُثر على هذه الرسالة فى مكتبة نور الدين بك مصطفى ثم طبعت بالمطبعة السلفية ضمن «ثلاث رسائل للجاحظ» سنة ١٣٤٤ وهى منشورة أيضاً ضمن «الفصول المختارة» بهامش كتاب الكامل

٧٠

كتاب ذم الزنا

٧١

رسالة فى ذم النبيذ

٧٢

رسالة فى ذم الوراقة

٧٣

رسالة فى الرد على الجهمية

٧٤

رسالة فى الرد على القولية

٧٥

كتاب الرد على النصارى

اختار عبيد الله بن حسان من هذا الكتاب رسالة عثر عليها وضمنها كتابه «الفصول المختارة» المنشور بهامش الكامل. ثم طبعت بالمطبعة

السلفية ضمنها ثلاث رسائل للجاحظ سنة ١٣٤٤

٧٦

كتاب الرسائل الهاشميات

٧٧

كتاب الرد على من ألحد فى كتاب الله

٧٨

كتاب الرد على من زعم أن الانسان جزء لايتجزأ

٧٩

كتاب الرد على العثمانية

٨٠

كتاب الرد على المشبهة

٨١

كتاب الرد على اليهود

٨٢

كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب

وضع الجاحظ هذا الكتاب وقدمه إلى ابراهيم بن العباس الصولى رئيس ديوان الرسائل فى عهد المأمون، فأجازه عليه بخمسة آلاف دينار

٨٣

كتاب السلطان وأخلاق أهله

٨٤

رسالة الشارب والمشروب

وهى رسالة منشورة ضمن « الفصول المختارة » بهامش الكامل

٨٥

كتاب الصُّرحاء وَالْهُجَنَاء

٨٦

كتاب صناعة الكلام

لعله الكتاب المسمى « تفضيل صناعة الكلام » المار ذكره

٨٧

كتاب الصوالجة

٨٨

رسالة فى طبقات المغنين

منها قطعة مطبوع ضمن « مجموعة رسائل » بمصر سنة ١٣٢٤

٨٩

كتاب الطفيليين

٩٠

كتاب العالم والجاهل

٩١

كتاب العباسية

لعله الكتاب المار باسم امامة ولد العباس

٩٢

كتاب العثمانية

قال المسعودى : وقد صنف (الجاحظ) كتابا استقصى فيه الحجاج عند نفسه ، وأيده بالبراهين وعضده بالأدلة فيما تصور من عقله ، ترجمه بكتاب « العثمانية » يحل فيه عند نفسه فضائل على عليه السلام ومناقبه ،

ويحتج فيه لغيره ، طلبا لأماتة الحق ومضادة لأهله : وقد نقض على الجاحظ كتابه هذا جماعة من متكلمى الشيعة كأبى عيسى الوراق [1] والحسن ابن موسى النخعى وغيرهما من الشيعة . وقد نقض على الجاحظ كتاب العثمانية أيضا رجل من شيوخ المعتزلة البغداديين ورؤسائهم وأهل الزهد والديانة منهم، ممن يذهب إلى تفضيل على والقول بامامة المفضول، وهو أبو جعفر محمد بن عبد الله الاسكافى . وكانت وفاته سنة ٢٤٠ هـ .

قلت وقد عثرت على كتاب « العثمانية » للجاحظ وكتاب « نقض العثمانية » للأسكافى وهما عندى وسأنشرهما فى لواحق هذا الكتاب

٩٣

كتاب العرب والعجم

٩٤

كتاب العرب والموالى

٩٥

كتاب العرجان والبرصان

٩٦

رسالة فى العشق والنساء

هذه الرسالة مطبوعة ضمن « مجموعة رسائل » بمصر سنة ٣٢٤

٩٧

رسالة فى العفو والصفح

---

(١) هو محمد بن هرون أبو عيسى الوراق كان من المعتزلة، ثم ظهر عليه فيما زعموا ميل إلى الزندقة، فوشى به فطلبه السلطان فلما ظفر به حبسه حتى مات . وله شعر جيد فى نوعه. وكانت وفاته سنة ٢٤٠ هـ

٩٨

كتاب عناصر الآداب

٩٩

كتاب غش الصناعات

زعم أبو منصور البغدادى أن الجاحظ قد أفسد بهذا الكتاب على التجار سلعهم .

١٠٠

رسالة فى فخر السودان على البيضان

هذه الرسالة طبعت مع رسالة «مناقب الترك» و «التربيع والتدوير» بلندن سنة ١٩٠٣ ثم طبعت ضمن « مجموعة رسائل » سنة ١٣٢٤

١٠١

كتاب فخر عبد شمس ومخزوم

١٠٢

كتاب فخر هاشم وعبد شمس

عثرت على هذا الكتاب وهو عندى وسأنشره ضمن لواحق هذا الكتاب

١٠٣

رسالة فى فرط جهل الكندى [1]

(١) هو فيلسوف الاسلام أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندى البصرى البغدادى ينتهى نسبه إلى ملوك كندة . وهو أول من اشتهر فى الاسلام بالعلوم الفلسفية وما إليها ، وكان على مذهب لفلاطون فى القول بحدوث العالم . وله رسائل ومؤلفات عدة فى علوم شتى . وكان بالرغم من تبحره فى المعارف وسعة دائرته فى العلوم مبخلا . وهو عند الجاحظ من أئمة البخلاء . والظاهر أنه توفى ببغداد سنة ٢٥٢ هـ

١٠٤

كتاب فرق مابين الجن والإنس

١٠٥

كتاب فرق مابين الملائكة والجن

١٠٦

كتاب فرق مابين النبي والمتنبي

١٠٧

رسالة فى فضل اتخاذ الكتب

١٠٨

كتاب فضل مابين الرجال والنساء

١٠٩

كتاب فضل العلم

١١٠

كتاب فضل الفرس على الهِمْلَاجِ [١]

١١١

كتاب فضيلة المعتزلة

ذكر هذا الكتاب أبو الحسين الخياط فى كتابه الانتصار . ولعله هو بعينه الكتاب المسمى « الاعتزال وفضله » المار ذكره . وقد رد عليه ابن الراوندى بكتاب « فضيحة المعتزلة »

---

(١) الهملاج : البرذون السهل القياد

١١٢

كتاب فضيلة الكلام

أشار إليه ابن النديم [١]، وقال: لأبى بكر الرازى [٢] كتاب «مناقضة الجاحظ فى كتابه فى فضيلة الكلام» وقال المسعودى : قال الجاحظ فى كتابه فى « تفضيل صنعة الكلام » وهى الرسالة المعروفة « بالهاشمية » فأنت ترى أن لبعض كتبه عدة أسماء

١١٣

كتاب القحاب

ذكره أبو منصور البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » وذكر له كتابا آخر فى نوع آخر !

١١٤

كتاب القحطانية والعدنانية

١١٥

كتاب القضاة والولاة

١١٦

رسالة فى القلم

---

(١) هو أبو الفرج محمد بن اسحق النديم البغدادى . صاحب كتاب « الفهرست » وهو أول كتاب وضع فيما نسميه الآن « تاريخ أدب اللغة العربية » وضعه مؤلفه فى الربع الأخير من القرن الرابع للهجرة . توفى ابن النديم سنة ٣٧٨ هـ

(٢) هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى الطبيب الفيلسوف الشهير توفى سنة ٣٢٠ هـ

١١٧

كتاب القواد

لعله هو الذى نشره القاضى شهاب الدين الخفاجى فى كتابه طراز المجالس باسم « القواد وأسباب الصناعات »

١١٨

رسالة فى القيان

عثر على هذه الرسالة فى مكتبة نور الدين بك مصطفى رحمه الله ثم طبعت بالمطبعة السلفية ضمن «ثلاث رسائل» للجاحظ سنة ١٣٤٤

١١٩

كتاب الكبر المستحسن والمستقبح

١٢٠

رسالة فى كتمان السر

١٢١

رسالة فى الكرم

بعث بها الجاحظ إلى أبى الفرج بن نجاح

١٢٢

كتاب الكلاب

ذكره أبو منصور الغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق »

١٢٣

رسالة فى الكيمياء

١٢٤

كتاب المخاطبات فى التوحيد

obeikandl.com

١٢٥

رساله فى مدح التجار وذم عمل السلطان

وهى مطبوعة ضمن « مجموعة رسائل » بمصر سنة ١٣٢٤

١٢٦

رسالة فى مدح الكتاب

١٢٧

رسالة فى مدح النبيذ

١٢٨

رسالة فى مدح الوراقة

١٢٩

كتاب المزاح والجد

١٣٠

كتاب المسائل

١٣١

كتاب مسائل العثمانية

قال المسعودى : ثم صنف (الجاحظ) كتابا ترجمه بكتاب « مسائل العثمانية » يذكر فيه مافاته ونقصه عند نفسه من فضائل أمير المؤمنين على ومناقبه ،وقد نقضه عليه جماعة من متكلمى الشيعة . وقد مر ذكرهم فيمن نقض كتاب العثمانية

١٣٢

كتاب مسائل كتاب المعرفة

١٣٣

كتاب القرآن

١٣٤

كتاب المضاحك

ذكره أبو منصور البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق »

١٣٥

كتاب المعاد والمعاش

١٣٦

كتاب المعادن

١٣٧

كتاب معارضة الزيدية

١٣٨

كتاب المعرفة

١٣٩

كتاب المعلمين

١٤٠

كتاب المغنين والغناء والصنعة

١٤١

كتاب مفاخرة السودان والحمران

١٤٢

رسالة فى مفاخرة المسك والرماد

ذكرها الصلاح الصفدى[1] فى شرحه على لامية العجم وقال : إنها رسالة بديعة

(١) هو صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى . كاتب شاعر أديب مؤرخ متفنن له مؤلفات عدة وشروح كثيرة . ومن أفضل شروحه (شرح لامية العجم) توفى سنة ٧٦٤ هـ

obeikandl.com

١٤٣

كتاب الملح والطرف

١٤٤

كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية

١٤٥

رسالة فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة

وضع الجاحظ هذه الرسالة وقدمها إلى الفتح ابن خاقان وزير المتوكل. طبعت هى ورسالة « التربيع والتدوير » ورسالة فخر السودان على البيضان ، بليدن سنة ١٩٠٣ ثم عثر على نسخة منها ابراهيم بك المويلحى [1] بالاستانه ونشرها فى جريدته « مصباح الشرق » ثم نشرت بالطبع ضمن « مجموعة رسائل » بمصر سنة ١٣٢٤

---

(١) هو ابراهيم بك المويلحى الكاتب البليغ والصحفى الشهير ، كان فى أول أمره تاجراً كسائر أسرته الكريمة ، ثم عين عضوا فى مجلس الأحكام فى عهد الخديوى اسماعيل ثم أنشأ مطبعة واشتغل بالصحافة، وكان الخديوى اسماعيل يحبه ويعطف عليه ، فلما خلع وسير إلى إيطاليا دعاه إليه واتخذه سكرتيرا خاصاً ونديماً أثيرا ، فأصدر وهو فى أوربا جريدة الأنباء وجريدة أبو زيد . ثم ذهب إلى الاستانة وعين عضوا فى مجلس المعارف فى عهد السلطان عبد الحميد، ولما عاد الى مصر وضع كتابه « ما هنالك » ثم أنشأ جريدة « مصباح الشرق» وشاركه فى تحريرها ولده الكاتب المجيد محمد بك رحمه الله. ولد بمصر سنة ١٨٤٦ وتوفى سنة ١٩٠٦

١٤٦

رسالة فى من يسمى من الشعراء عمراً

١٤٧

رسالة فى موت أبى حرب الصفار البصرى

١٤٨

رسالة فى الميراث

١٤٩

كتاب النائى والمتلاشى

١٥٠

كتاب النرد والشطرنج

١٥١

كتاب النصراني واليهودى

١٥٢

كتاب النعل

١٥٣

كتاب نقض الطب

وقد وضع أبو بكر الرازى كتاباً فى الرد عليه ونقضه ، وكذلك وضع ابن مندويه[1] رسالة فى نقضه. ذكر ذلك ابن أبى أصيبعة

---

(١) هو أبو على أحمد بن عبد الرحمن بن مندويه الاصفهانى كان من مشهورى الأطباء فى بلاد العجم وكتبه كلها رسائل. وهى كثيرة ، وكان مع هذا أديباً شاعرا حسن العبارة

١٥٤

كتاب نوادر الحسن

١٥٥

كتاب النواميس

ذكره أبو منصور البغدادى وقال عنه : وهو ذريعة المحتالين يجتلبون به ودائع الناس وأموالهم.

١٥٦

كتاب وجوب الإمامة

١٥٧

كتاب الوعد والوعيد

١٥٨

كتاب الوكلاء

وهو رسالة مطبوعة ضمن « مجموعة رسائل » بمصر سنة ١٣٢٤

١٥٩

رساله اليتيمة

obeikandl.com

الفصل التاسع عشر

فى

الكتب التى نسبت الى الجاحظ وليست له

١

كتاب الابل

قال ياقوت : إنه من الكتب التى نسبت اليه قديماً

٢

كتاب التاج

أو أخلاق الملوك

هذا الكتاب نشره أحمد زكى باشا بالطبع سنة ١٣٣٢ (١٩١٤) وصنع له مقدمة طويلة حاول فيها نسبته إلى الجاحظ ، وجد فى لصقه به وتزييفه عليه، بما فى وسعه من حجة ، وبما استطاع تصيده من دليل و برهان ، غير أن الحق الذى لا مراء فيه يصرخ فى وجهه : إن الجاحظ منه براء . ونحن لا نتكلف التدليل على ذلك بأكثر من أن نعرض عليك مقارنة بين تقدمة هذا الكتاب وتقدمة أخرى مثلها لكتاب آخر له ، وكلتاهما مرفوعتان إلى رجل واحد ، لتعرف فرق ما بينهما ، وهل هما كما رفعتا لرجل واحد ، كانتا لكاتب واحد ؟ أم تراهما متنافرتين ، تنادى كل واحدة منهما بالبراءة من أختها ، وبأنه لا جامعة بينهما ولا سبب يربط إحداهما بالأخرى ! !

كان الفَتْحُ بنُ خاقان وزير المتوكل على الله العباسى ، أكبر رجل في دار الخلافة ، وكان من عظماء الدولة وأصحاب المكانة والسلطان فيها ، وكان على جانب عظيم من الدهاء والسياسة والفضل ، وكان مقصود الجانب من أكابر العلماء ، وفحول الأدباء ، وأرباب القلم من كل فن ونوع ، وكان محباً للجاحظ ، مُعجباً بأدبه وفضله وسعة معارفه ، وكان الجاحظ يراه أهلا للإيثار ، ويعتده أثيراً بالاعتبار ، فوضع له رسالته المشهورة فى « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » ورفعها إليه بهذه المقدمة الجاحظية البارعة ، قال :

« وفقك الله لرشدك ، وأعان على شكرك ، وأصلحك وأصلح على يديك ، وجعلنا وإياك ممن يقول الحق ويعمل به ، ويؤثره ويحتمل ما فيه مما قد يصده عنه ، ولا يكون حظه منه الوصف له والمعرفة به ، دون الحث عليه ، والانقطاع إليه ، وكشف القناع عنه ، وإيصاله إلى أهله ، والصبر على المحافظة فى أن لا يصل إلى غيرهم ، والتثبت فى تحقيقه لديهم . فان الله تعالى لم يُعَلِّم الناس ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عاملين ، بل علمهم ليعملوا وَبَيَّنَ لهم ليتقوا . ولخوف الوقوع فى المضار ، والتورط فى المهالك ، طلب الناسُ التَّبَيُّن . ولحب السلامة من الهلكة والرغبة فى المنفعة احتملوا ثقل التعلم ، وتعجلوا مكروه المعاناة . ولقلة العاملين وكثرة الواصفين ، قال الأولون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين . وإنما كثرت الصفات وقلت الموصوفات ، لأن ثواب العمل مؤجل ، واحتمال ما فيه مُعجل .

وقد أعجبنى ما رأيت من شغفك بطاعة إمامك ، والمحاماة لتدبير خليفتك ، وإشفاقك من كل خلل دخل على مُلكه وإن دق ، ونال سلطانه وإن صغر . ومن كل أمر خالف هواه وإن خفى مكانه ، وجانب

رضاه وإن قل ضرره . ومن تخوفك أن يجد المتأوّلُ إليه مُتَطَرَّقاً ؛ والعدو عليه متعلقاً . فإن السلطان لا يخلو من متأول ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زارٍ ، ومن مُتعطل مُتصفح[1] ومن مُعجَب برأيه ذى خطل فى بيانه ، مولع بتهجين الصواب والاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائدٌ لجميع الأمة ، ووكيل لسكان المملكة ، يضع نفسه فى موضع الرقباء ، وفى موضع التصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يَعذر وإن كان مجاز العذر واضحاً ، ولا يقف فيما يكون الشك محتملا ، ولا يُصدّق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنه لا يعرف مصادر الرأى من لم يشهد موارده ، ولا مُسْتَدْبَرِهِ من لم يعرف مستقبله . ومن محروم قد أضطغنه الحرمان . ومن لئيم قد أفسده الاحسان . ومن مستبطىء قد أخذ أضعاف حقه ، وهو لجهله بقدره ، ولضيق ذرعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذى بقى له أكثر ، وأن حقه أوجب . ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ، ونعمه السالفة عليه ، لكان لذلك أهلا وله مستحقاً . قد غره الإملاء ، وأبطره دوامُ الكفاية ، وأفسده طول الفراغ .

وصاحب فتنة خامل فى الجماعة ، رئيس فى الفُرقة ، نَفَّاقٍ فى الهَرْج ، قد أقصاه عز السلطان ، وأقام صغوه ثِقاف الأدب ، وأذله الحكم بالحق ، فهو مَغيظ لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشفى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأمانى ، ولا يأنس إلا بكل مُرجف كذاب ، ومفتون مرتاب ، وخارص[2] لا خير فيه ، وخالف لا غَنَاءَ عنده . يريد أن يُسَوَّى بالكُفاة .

(١) المتصفح : المقلب لوجوه الاشياء عليه يعثر على ما يوجب المؤاخذة والانتقاد
(٢) الخارص : الكذاب المختلق الأباطيل

ويرفع فوق الحاجة ، لأمر سنف له : وللاحسان كان من غيره ، وليس ممن يَرِبُ[1] قديماً بحديث ، ولا يخلِلُ بدروس[2] شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحسنين ، وبين الحفظ للأبناء المحسنين . وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام وثوب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الخلق فى مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل فى منازله ؟!

ثم أعلمتنى بذلك أنك بنفسك بدأت فى تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب أنصار خليفتك ، وإياها حطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه . ونعم العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والموازرة على الخير ، والمكانفة لأهل الحق . وقد استدللتُ بالذى أرى من شدة عنايتك وفرط اكتراثك وتفقدك لأخابير الأعداء ، وبحثك عن مناقب الأولياء . على أن ما ظهر من نصحك أمَمٌ[3] فى جنب ما بطن من إخلاصك . فأمتع الله بك خليفته ، ومنحنا وإياك محبته ، وأعاذنا من ثوب الزور ، والتقرب بالباطل . إنه حميد مجيد ، فعال لما يريد »

هذه هى المقدمة التى رفع بها الجاحظ رسالته إلى الفتح بن خاقان ، وهذا هو الأسلوب الذى اختص به الجاحظ من بين كتاب العربية . فانظر كيف افتتح هذه المقدمة ، وكيف بدأها ، وكيف تنقل فى معانيها ، وأغراضها من الدعاء إلى الوصف ، ومن العبرة إلى الحكمة ، ومن ذكر الطبائع إلى نعت المطامع . ثم انظر كيف قسم صنوف الناس من المتبرمين بالسلطان ، وكيف علل تبرمهم ، وفصل أسباب تضجرهم ، حتى لم يكد يدع خاطرة فى هذا الباب ، ولا بادرة فى هذا المعنى ، إلا استوفى الابانة عنها

---

(١) يرب : يزيد ويصل

(٢) الدروس : المحو والابلاء

(٣) أمم : قريب ظاهر

بعبارات جزلة ، وألفاظ سهلة . وحتى كأنه يصف أخلاق أهل مصر فى هذا العصر ، بقلم القدرة الذى يحق الحق و يبطل الباطل . ثم انظر كيف ختم ذلك بالاعجاب به، و بشدة إخلاصه لامامه، وحمده إياه على ما يتخذ فى هذه السبيل من وسائل محمودة الأثر . ثم حثه على الاستمساك بعِصَمِ الولاء ، والاعتصام بحبل الوفاء . و بعد أن تتفهم هذه المعانى، وتزن هذه الأساليب، وتفقه هذه المناهج ، وتتشرب هذه الروح : إقرأ هذه التقدمة التى رفع بها مؤلف كتاب التاج كتابه إلى الفتح بن خاقان . والتى ألح ناشر هـذا الكتاب فى نسبته إلى الجاحظ .

و إليك هذه التقدمة ، ليكون الحكم على بينة . قال :

«ألحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ،وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير . أحمده على تتابع آلائه ، وتواتر نعمائه ، وترادف مننه . وأستهديه وأستوفقه لما يرضيه و يرضى فيه . وأشهد أن لا إله إلا الله الذى لا شبيه له ولا نظير ، الذى جل عن الأجزاء والتبعيض ، والتحديد والتمثيل ، والحركة والسكون ، والثقلة والزوال ، والتصرف من حال إلى حال . لا إله إلا هو الكبير المتعال . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وأمينه ونجيه ، إبتعثه على فترة من الرسالة ، وطُموس من الهداية ، ودُروس من شرائع الأنبياء والمرسلين « لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ » والعرب تئد أولادها، وتتسافك دماءها، وتتباوح أمواها، وتعبد اللاَّتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ، فصدع بأمر ربه ؛ وجاهد فى سبيله ، ودعا إلى معالم دينه ، وجاء بما أعجز الجن والإنس أن يأتوا « بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً » فصلى الله عليه وعلى جميع المرسلين ، وخصه بصلاة من نوافله دون العالمين ، وعليه السلام ورحمة الله و بركاته .

أما بعد : فإن الذى حدانا على وضع كتابنا هذا معان : منها أن الله عز وجل لما خص الملوك بكرامته ، وأكرمهم بسلطانه ، ومكن لهم فى البلاد ونوَّلهم أمر العباد ، أوجب على علمائهم تعظيمهم وتوقيرهم وتعزيزهم وتقريظهم ، كما أوجب عليهم طاعتهم والخضوع والخشوع لهم ، فقال فى محكم كتابه : « وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » وقال عز وجل « أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ » ومنها أن أكثر العامة و بعض الخاصة لما كانت تجهل الأقسام التى تجب للملوك عليها — و إن كانت متمسكة بجملة الطاعة — حصرنا آدابها فى كتابنا هذا لنجعلها قدوة لها و إماماً لتأديبها . وأيضاً فإن لنا فى ذلك أجرين : أما أحدهما فلما نبهنا عليه العامة من معرفة حق ملوكها . وأما الآخر فلما يجب من حق الملوك علينا من تقويم كل مائل عنها ، ورد كل نافر إليها . ومنها أن سعادة العامة فى تبجيل الملوك وطاعتها ، كما قال أَرْدَشِيرُ ابْنُ بَابَكْ : سعادة الرعية فى طاعة الملوك ، وسعادة الملوك فى طاعة المالك . ومنها أن الملوك هم الأُسُّ ، والرعية هم البِنَاء ، وما لا أُسَّ له مهدوم . ومنها أنا ألفنا كتاباً قبل كتابنا هذا ، فيه أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة ، وكان غير ذلك أولى بنا وأحق فى مذهبنا ، وأحرى أن نصرف عنايتنا إلى ما يجب للملوك من ذكر أخلاقها وشيمها ، إذ فضلها الله على العالمين ، وجعل ذكرها فى الباقين ، إلى يوم الدين . ألا ترى حين ذكر الله تعالى الأمم السالفة والقرون الخالية ، لم يقصد من ذكر إلى وضيع ولا خامل ! بل قال تعالى حكاية عمن مضى منهم « رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا » وقال تبارك اسمه « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ » وقال جلت عظمته « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ » وقال جل وعلا « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ

اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَالَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ » وقال تقدست أسماؤه « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » وقال تبارك وتعالى « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » وقال عز وجل ، وقد بعث موسى عليه السلام الى أعتى خلقه وأشدهم عُنوداً وصُدُوفاً عن أمره « إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » فليفهم الحكماء هذه الأعجوبة التى وصلت عن الله تبارك وتعالى فإن فيها حكمة عجيبة وموعظة بليغة ، وتنبيهاً لمن كان له قلب .

حدثنا أصحابنا عن شَبابة عن ورْقاء عن ابن أبى نَجِيح عن مجاهد فى قوله تبارك وتعالى « فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً » قال : كَنِّيَاهُ . وإنما أمرهما بذلك لأن الملوك وان عصى أكثرها فمن حقها أن تدعى الى الله بأسهل القول ، وألين اللفظ ، وأحسن المخاطبة . فإذا كان هذا حكم الله فى العاصى من الملوك والذين ادعوا الربوبية وجحدوا الآيات وعاندوا الرسل ، فماظنك بمن أطاع الله منها وحفظ شرائعه وفرائضه ، وقلد مقام أنبيائه ، وجعله الحجة بعد حجته ، وفرض طاعته حتى قرنها بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ! ؟ فرأينا اذ أخطأنا فى تقديمنا أخلاق أهل البطالة — وإن كان فيها بعضُ الآداب وما يحتاج إليه أهلُ الشرف من محاسن الأخلاق — أن نتلافى ما فرط منا بوضع كتاب فى أخلاق الملوك وخصائصها التى هى لها فى أنفسها ، وأن نخص بوضع كتابنا هذا الأمير الفَتْحَ بْنَ خَاقَانَ مولى أمير المؤمنين : إذ كان بالحكمة مشغوفاً ، وعلى طلبها مثابراً ، وفيها وفى أهلها

راغباً ، ليبقى له ذكره، ويحيا به إسمه ، ما بقى الضياء والظلام ، وبالله التوفيق والإعانة »

فأى امرىء له مُسكةٌ من عقل ، أوأثارةٌ من ذوق ، أو بقيةٌ من أدب ، أو صُبابة من فضل ، يستطيع أن يقول: إن كاتب تلك التقدمة هو كاتب هذه ؟ وهل يشك لحظة فى أن الفرق بين أسلوب الأولى وأسلوب الثانية إلا كالفرق بين الصدق والكذب، والنور والظلمة، والحق والباطل، والعلم والجهل ؟ ألحق أن كتاب التاج ليس للجاحظ ، ومن حاول نسبته إليه فانما أراد التنكيل به والحط من قدره ، أو هو فى الواقع يجهل الجاحظ جهلا تاما كما لا يقوى على تذوق أسلوبه ، واستشعار مذهبه، وتفقه منهجه . وإذا كان لنا أن نسلم جدلا بأن الكتاب قد يكون وضع فى القرن الثالث الذى توفى الجاحظ فى منتصفه ، فلن نسلم قط بأن هذه التقدمة وضعت فى ذلك العهد أو رآها الفتح بن خاقان . والراجح عندنا أن رجلا من كتاب القرن الخامس وقع له كتاب عنوانه أخلاق الملوك ، ورأى فى ثَبَتِ كتب الجاحظ أن له كتابا بهذا الاسم وكتابا آخر باسم أخلاق الفتيان وأهل البطالة ، فوضع له هذه التقدمة المصطنعة ، لينفقه على الناس وتكون له الحظوة لدى القراء .

هذا رأينا فى نسبة هذا الكتاب إلى الجاحظ

٣

كتاب تنبيه الملوك والمكايد

إذا علمت أن هذا الكتاب مصدر بفاتحة يقول فيها « الحمد لله الذى افتتح بالحمد كتابا ، وفتح للعبد إذا وافا إليه بابا » لم تتردد لحظة فى أنه لغير الجاحظ، وإنما نسبه من نسبه إليه جهلا وغباء . توجد منه نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية تحت نمرة ٢٣٥٤

٤

كتاب الحنين إلى الأوطان

من قرأ هذا الكتاب وقرنه بشيء من كتب الجاحظ أو وازن بينه و بين طريقته فى التأليف ، لا يشك مطلقا فى أن الجاحظ منه براء،وأنه من تلفيقات الوراقين الذين يجمعون شتى العبارات إلى بعضها فى كتاب ثم ينسبونه إلى مؤلف مشهور ليلقى الرواج عند الناس . ومن العجب أن الشيخ طاهر الجزائرى رحمه الله، وهو الذى وقف على طبعه يخدع به ، ولا يفطن إلى أن نسبته إلى الجاحظ كذب وافتراء؟! . طبع بمطبعة المنار سنة ١٣٣٣ ﻫ

٥

كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والآثار

عثر به الفاضل محمد راغب الطباخ الحلبى وطبعه منسوبا إلى الجاحظ سنة ١٩٢٨ ولعله للحارث بن أسد المحاسبى أحد أفاضل الزهاد

٦

كتاب سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف

الظاهر أن مدير مطبعة الجوائب . وكانت من خيرة المطابع بالأستانة ، قد عثر على هذا الكتاب فى إحدي المكاتب العامة باستانبول ، وطبعه عن نسخة مخطوطة فى سنة ٤٤١ ﻫ . غير أنه لم يصف المخطوطة ولم يذكر اسم كاتبها ، ولم يلتفت إلى تحقيق نسبتها ، إلا انه على ما يظهر قد وجد بصدرها اسم الجاحظ ، فطبعها منسوبة إليه دون تكلف بحث هذه النسبة ووزنها . أما أنا فأقرر أن هذا الكتاب ليس للجاحظ وماعرفه قط فى حياته وإليك بيان ذلك :

جاء بالمقدمة بعد ديباجة لا عهد لأهل القرن الثالث بها :

« خرجت يوما وأنا فى خدمة « قوم الملك ونظام الدين أبى يعلى أحمد ابن طاهر » أطال الله فى المعالى لتهذيب المعانى بقاءه ، وحرس فى اقتفاء المكارم عن المكاره فِناءه ، وحاط على الأفاضل باسداء الفواضل نعماءه ، وعطف على العلماء بحفظ أيامه وزمانه ، وجَمَّل الدنيا بعزة تمكينه فيها ورفعة مكانه » ألخ

ولم تكد تُعرف هذه الألقاب أمثال: قوم الملك ونظام الدين، وحجة الاسلام، ونور الممالك ، وجمال السلطنة ، وبهاء الدولة ، إلا فى أيام الدولة السلجوقية . ولست فى حاجة إلى إيراد تاريخ أبى يعلى أحمد بن طاهر ، فقد كفانا ماجاء فى الكتاب من شعر لابن المعتز ولابن الرومى ولغيرهما من الشعراء والكتاب الذين لم يُعرفوا إلا فى القرن الرابع أو فى أواخر القرن الثالث ، فما ورد فيه منسوبا إلى ابن المعتز قوله :

إشْرَبْ عَلَى طِيبِ الزَّمانِ فقَدْ حَدَا ... بالصَّيْفِ مِنْ أَيْلُولَ أَسْرَعُ حَادِ
وأشَمَّنَا باللَّيْلِ بَرْدَ نَسِيمِهِ ... فارْتَاحَتِ الأَرْوَاحُ فى الأَجْسَادِ
وَافاكَ بالأَنْدَاءِ إقْدَامَ الحيَا ... والأَرْضُ لِلْأَمْطَارِ فى اسْتِعْدَادِ
كَمْ فى ضَمَائِرِ تُرْبِهَا مِنْ رَوْضَةٍ ... بِسَبِيلِ مَاءٍ أَوْ قَرَارَةِ وَادِ
تَبْدُو إذَا جَادَ السَّحَابُ بِقَطْرِهِ ... وكأَنَّمَا كانَا عَلَى مِيعَادِ

وقوله:

أَلَا تَرَى بَهْجَاتِ الرَّوْضِ فى السَّحَرِ ... فَوْقَ النَّدَى واتِّسَاقَ الْوَرْدِ فى الشَّجَرِ
إذَا السَّحَابُ سَقَاهَا فى الدُّجَى خَلَعَتْ
بَعْدَ السَّحَابِ عَلَيْهَا الشَّمْسُ فى البُكَرِ
والرَّوْضُ مِنْ زَاهِرٍ زَاهٍ بِنَضْرَتِهِ ... وَكَامِنٍ مِنْهُ فى الأَغْصَانِ مُنْتَظِرِ

حَسْبِي مِنَ الوَرْدِ تَوْرِيدُ الخدُودِ كما ... حَسْبِي مَسَرَّةُ مَحْسُودٍ مِنَ البَشَرِ

ومما ورد فيه لابن الرومى قوله :

لَوْلاَ فَوَاكِهُ أَيْلُولٍ إِذَا اجْتَمَعَتْ ... مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَرَقَّ الجَوُّ وَالمَاءُ
إِذاً لَمَّا حَفِلَتْ نَفْسِي مَتَى اشْتَمَلَتْ ... عَلَيَّ هَائِلَةُ الجَالِينَ غَبْرَاءُ
يَاحَبَّذَا لَيْلُ أَيْلُولٍ إِذا بَرَدَتْ ... فِيهِ مَضَاجِعُنَا والرِّيحُ سَجْوَاءُ
وجَمَّشَ القَرُّ فيهِ الجِلْدَ واشْتَمَلَتْ ... مِنَ الضجِيعَيْنِ أَحْشَاءٌ وأَحْنَاءُ
وأَسفَرَ القَمَرُ السَّارِي بِصَفْحَتِهِ ... وَرْيَالُهَا مِنْ صَفَاءِ الجَوِّ لَألاَءُ
يَاحَبَّذَا نَفْحَةٌ مِنْ رِيحِهِ سَحَرًا ... يَأْتِيكَ فيهَا مِنَ الرَّيْحَانِ إِمْضَاءُ
بَلْ فيهِ مَاشِئْتَ مِنْ شَهْرٍ تَعَهَّدَهُ ... فِي كُلِّ يَوْمٍ يَدٌ للهِ بَيْضَاءُ

وقوله :

أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا تَرُوقُ مَنْ نَظَرْ ... بِمَنْظَرٍ فيهِ جَلاَءٌ لِلْبَصَرْ
وَاهاً لَهَا مُصْطَنَعاً لَقَدْ شَكَرْ ... أَثْنَتْ عَلَى اللهِ بِآلاَءِ المَطَرْ
والأَرْضُ فِي رَوْضٍ كَأَفْوَافِ الحِبَرْ ... تَبَرَّجَتْ بَعْدَ حَيَاءٍ وَخَفَرْ
تَبَرُّجَ الأُنْثَى تَصَدَّتْ لِلذَّكَرْ

وأنت تعلم أن ابن المعتز وابن الرومى لم يدرك واحد منهما الجاحظ ولا رآه ، وعندى أن هذا الكتاب قد وضع فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس .والجاحظ منه براء

٧

كتاب المحاسن والأضداد

خُدِعَ كثير من الناس بهذا الكتاب ونسبوه إلى الجاحظ ، بلا بحث ولا تحقيق ، وممن خُدع به قديما الشيخ محيي الدين بن العربى ، فقد رأيته

ينقل عنه فى كتابه « محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار » . والحقيقة أن الجاحظ يبرأ إلى الله منه وممن زيفه عليه . إذ هو كتاب غث سقيم حشى بكثير من الأكاذيب الممزوجة بالقليل من أشباه الحقائق . والظاهر أن أحد الوراقين فى القرن الرابع لفقه ولم يجد سبيلا إلى ترويجه إلا بأن ينسبه إلى الجاحظ .

ومن الأدلة على براءة الجاحظ منه أنى بينا أقلبه وقع نظرى فى صفحة ٣٨ من النسخة المطبوعة بمصر سنة ١٣٢٤ هـ على هذه الأبيات منسوبة إلى ابن المعتز ، قال : وقال ابن المعتز :

تَعَلَّمْتُ فى السِّجنِ نسْجَ التِّكَكْ ... وكُنْتُ امْرَأً قَبْلَ حَبسِى مَلِكْ
وقُيِّدْتُ بعدَ رُكُوبِ الجِيَادِ ... وَمَا ذاكَ إلاَّ بِدَوْرِ الفَلَكْ
أَلَمْ تُبْصِرِ الطَّيْرَ فى جَوِّهَا ... تَكادُ تُلاصِقُ ذَاتِ الحُبُكْ
إذا أبصَرَتْهُ خُطُوبُ الزَّمَانِ ... أَوْقَعَتْهُ فى حِبَالِ الشَّرَكْ
فَهذَاكَ مِنْ حَالِقٍ قَد يُصَادُ ... ومِن قَعْرِ بَحرٍ يُصَادُ السَّمَكْ

قرأت هذه الأبيات فعجبت كيف يروى الجاحظ لابن المعتز وقد مات الجاحظ قبل أن يبلغ ابن المعتز من العمر ست سنين ؟ فقد ولد ابن المعتز فى شعبان سنة ٢٤٩ ومات الجاحظ فى المحرم سنة ٢٥٥ فهل من المعقول أن يروى الجاحظ عنه وهو فى هذه السن ؟ وهل يتفق عرفا وعادة أن ابن ست سنين يقول شعرا ؟ على أن نظرة فى هذه الأبيات تكفى لنفيها عن ابن المعتز أيضا . لأنها من الضعف والسقم والاسفاف إلى حد كبير . فهى لا تتفق ونفس ابن المعتز ، ويعلو أسلوبه عنها . ولأن ابن المعتز لم يسجن فضلا عن يبقى فى السجن حتى يتعلم نسج التكك . وحقيقة ذلك أنه لما أقامه رجال الدولة خليفة لم يلبث فى دست الخلافة أكثر من يوم وليلة ثم ثار به رجال المقتدر وتمكنوا من خلعه فاختفى فى دار ابن الجصاص الجوهرى ثم أخذه

مؤنس الخادم، أحد قواد الدولة المشهورين، فقتله ثم سلمه إلى أهله فى كساء . فهل يظن أنه وهو مختف فى دار ابن الجصاص ، والطلب مشتد عليه ،والزعر والفزع متملكان فؤاده ، يفرغ لتعلم نسج التكك ؟ ! فضلا عن أن يقول الشعر فيها وفى تعلم نسجها ؟ على أننى لم أعثر على هذه الأبيات فى ديوانه .

وفى الصفحة ١١٦ رأيت واضع الكتاب يقول : وقال عبد الله بن المعتز « أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام » وسبيل هذا سبيل ماسلف. وفى صفحة ١٣٥ يقول : حدثنا ثعلب عن الفتح بن خاقان . ولا يصح مطلقا أن يحدث الجاحظ عن ثعلب . وفى صفحة ١٤٢ يقول : ومما جاء فى الحسن من الشعر قال عبد الله بن المعتز : أنشدنى أبو سهل اسماعيل بن على لأبى الصواعق :

ومَرِيضِ طرفٍ لَيسَ يَصرِفُ طَرفَهُ ... نحوَ المدَى إلَّا رَمَاهُ بِحَتْفِهِ
ظَبْيٌ لهُ نَظَرٌ ضعيفٌ كلَّمَا ... قَصَدَ القوِىَّ أَتى عليهِ بضَعْفِهِ
قدقُلْتُ لمَّا مَرَّ يَخْطِرُ مائِسًا ... والرِّدْفُ يَجذبُ خَصرَهُ مِن خَلْفِهِ
يا مَن يُسَلِّمُ خَصرَهُ مِن رِدْفِهِ ... سَلِّم فؤَادَ مُحِبِّهِ مِنْ طَرفِهِ

فقمت (يعنى ابن المعتز) فى هذا المعنى وعلى هذا الوزن :

وَحَيَاةِ مَنْ جَرَحَ الفُؤَادَ بِطَرفِهِ ... لَأُحَبِّرَنَّ قَصَائِدِى فى وَصْفِهِ
قَمَرٌ بِهِ قَمَرُ السَّمَاءِ مُتَيَّمٌ ... كالغُصْنِ يَعجَبُ نِصفُهُ مِنْ نِصفِهِ
إِنِّى عَجِبْتُ لِخَصْرِهِ مِنْ ضَعْفِهِ ... مَاذَا تَحَمَّلَ مِن ثَقَالَةِ رِدْفِهِ ؟
هَذَا وَمَا أَدْرِى بِأَيَّةِ فِتْنَةٍ ... جَرَحَ الفُؤَادَ بِلَحْظِهِ أَم طَرفِهِ ؟
أَمْ بِالدَّلَالِ أَمِ الجَمَالِ أَمِ الضَّنَا ... مِنْ وَجْهِهِ أَمْ بِالْتِفَاتٍ مِنْ خَلْفِهِ

ولم أعثر على هذه الأبيات فى ديوانه

وفى الصفحة ١٤٤ يقول : وقال آخر :

يا مِلاحَ الدَّلاَلِ وَالإِغْتِنَاجِ ... ما أَرَى القَلْبَ مِنْ هَوَاكُنَّ نَاجِ
أَنْتَ زَرْقَنْتَ فَوْقَ خَدَّيْكَ صُدْغًا ... مِنْ عَبِيرٍ عَلَى صَفَائِحِ عَاجِ
أَشْرَقَتْ وَجْنَتَاكَ بِالنُّورِ حَتَّى ... أَغْنَتَا الْخَلْقَ عَنْ ضِيَاءِ السِّرَاجِ
فَعَلَتْ مُقْلَتَاكَ بِالْقَلْبِ مِنِّى ... فَعْلَةَ الْقَرْمَطِىِّ بِالْحُجَّاجِ
يَا هِلاَلاً آنَسْتُ مِنْهُ بِضَوْءٍ ... جُنْحَ لَيْلٍ مِنَ الظَّلاَمِ الدَّاجِ

وقد لفت نظرى فى هذه الأبيات قوله « فعلة القرمطى بالحجاج » فإن هذه العبارة تشير الى وقعة حدثت بعد وفاة الجاحظ بأربعين سنة . وذلك أن ذِكْرَوَيه زعيم القرامطة هاجم الحجاج بجيوشه سنة ٢٩٤ وقتلهم بهم فتكا ذريعا . حتى قالوا إن عدة القتلى كان عشرين ألفا الخ . فكيف يقضى الجاحظ أن يروى فى كتاب له شعراً تذكر فيه حادثة لم تقع إلا بعد وفاته بأربعين سنة ؟ هذا مالا يقول به عاقل !

والحق أن هذا الكتاب مدسوس على الجاحظ . وأبو عثمان لا يعرفه

٨

كتاب الهدايا

قال ياقوت انه مما نسب الى الجاحظ قديما

الفصل العشرون

في

ما اخترناه من طرفه ونوادره

للجاحظ أخبارٌ شائقةٌ ، وطرف فائقةٌ ، ونوادر طريفة ، وأحاديث لطيفة ، وكان مع جده وجلالة مقامه ، وسنى منزلته ، ومع مواقفه المشهورة في الجدل والنظر ، ومع شدة مجالدته لخصومه وأعداء مذهبه بقوة لسانه ، ومتانة بيانه ، كان مع هذا كله ميالا الى الملح واللطائف ، والنكت والطرائف ، والتندر والعبث ، والسخرية والطَّنَز ، والترويح عن النفس بما لاغميزة فيه بالدين ، وإجمام الخاطر بما لامساس فيه بالمروءة ، لايبالى فى سبيل تصيد النكتة الحارة ، وفى تقييد الطرفة الشهية ، أن يروى بها ولو كان فيها ما يتناول سمته ، ويغتمز حلى وقاره ، واقفا من ذلك عند حد الأثر القائل « أجموا هذه النفوس بشيء من الهزل لتستعين به على الجد » فمن ذلك ما حدث به عن نفسه قال :

١

ذُكرت للمتوكل لتأديب بعض وُلده ، فلما رآنى استبشع منظرى ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم وصرفنى . فخرجت من عنده ، فلقيت محمد بن ابراهيم وهو يريد الانصراف إلى مدينة السلام ، فعرض على الخروج معه والانحدار فى حَرَّاقتِهِ — وكنا بسُرَّمَنْ رَآى — فركبنا فى الحراقة فلما انتهينا الى فم القاطول نصب ستارة وأمر بالغناء . فاندفعت عَوَّادَةٌ فغنت :

كلَّ يومٍ قَطِيعةٌ وعِتابُ ... يَنقضى دَهْرُنا ونحنُ غِضابُ

لَيْتَ شِعرى أنا خُصِصتُ بهذا دونَ ذا الخلْق أم كذا الأحْبَابُ!

وسكتت . فأمر الطُّنْبُورِيَّة فغنت :

وَارحمْتَا للعَاشقِينَا مَا إن أرَى لهُمُ مُعينَا

كم يُهْجَرُونَ وَيُصْرَمُون وَيُقْطَعون فَيَصبرُونَا

فقالت لها العوادة : فيصنعون ماذا ؟ قالت: هكذا يصنعون ؟ وضربت بيدها إلى الستارة فهتكتها و برزت كأنها فلقة قمر فألقت نفسها فى الماء . وعلى رأس محمد غلام يضاهيها فى الجمال ، و بيده مِذبَّة فأتى الموضع ونظر إليها وهى تمر بين الماء وأنشد:

أنْتِ الَّتى غرَّقتِنى بعْدَ القضَا لَو تعلَمِينَا

وألقى نفسه فى أثرها . فأدار الملاح الحراقة فاذا بهما معتنقان ، ثم غاصا فلم يُرَيا . فاستعظم محمد ذلك وهاله أمرهما ثم قال: ياعمرو ، لتحدثنى حديثا يسلينى عن فعل هذين والا ألحقتك بهما !

قال : فحضرنى حديث يزيد بن عبد الملك[1] وقد قعد للمظالم وعرضت عليه القصص فمرت بها قصة فيها : إن رآى أمير المؤمنين أن يُخرج إلى جاريته فلانة حتى تُغنيَنى ثلاثة أصوات فعل . فاغتاظ يزيد من ذلك وأمر من يخرج إليه فيأتيه برأسه ، ثم أتبع الرسول رسولا آخر يأمره بأن يدخل إليه الرجل

(١) هو يزيد بن عبد الملك بن مروان أحد ملوك بنى أمية بالشام ولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز وذلك فى يوم الجمعة ٢٤ رجب سنة ١٠١ هـ وكان يكنى أبا خالد وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، وكان صاحب لهو ولعب واستهتار ، على مايقولون ، وكانت له جاريتان تسمى إحداهما سلامة والأخرى حبابة ملكا عليه عقله ، واستأثرا بلبه ، وشاع الظلم والجور فى أيامه . توفى بأربد من أرض البلقاء من أعمال دمشق سنة ١٠٥ هـ

فأدخله . فلما وقف بين يديه قال : ما الذى حملك على ما صنعت ؟ قال : الثقةُ بحلمك ، والاتكالُ على عفوك . فأمره بالجلوس حتى لم يبق أحد من بنى أمية إلا خرج ، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعها عودها ، فقال لها الفتى : غنى :

أفاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هذا التَّدَلُّلِ وإنْ كُنْتِ قد أزْمَعْتِ صَرْمِى فأَجْمِلِى

ففنته . فقال له يزيد : قل ؟ فقال : غنى :

تألَّقَ البَرْقُ نَجْدِيًّا فقُلْتُ له يا أيُّها البرقُ إنى عنكَ مشغولُ

ففنته . فقال له يزيد : قل ؟ فقال : يا مولاى ، تأمرلى برطل شراب! فأمر له به . فما استتم شربه حتى وثب وصعد على أعلى قبة ليزيد فرمى نفسه على دماغه فمات ...؟!! فقال يزيد: إنا لله وإنا اليه راجعون ! أترُاه الأحمق الجاهل ظن أنى أُخرج إليه جاريتى وأردها إلى مِلكى ؟ خذوا بيدها واحملوها إلى أهله ، إن كان له أهل ، وإلا فبيعوها وتصدقوا عنه بثمنها . فانطلقوا بها فلما توسطت الدار نظرت إلى حفيرة فى وسط دار يزيد ، قد أعدت للمطر، فجذبت نفسها من أيديهم وأنشدت :

مَن ماتَ عِشقًا فَلْيَمُتْ هكذا لا خيْرَ فى عِشق بِلا موْتِ

وألقت نفسها فى الحفيرة على دماغها فماتت...؟!! قال : فسُرِّىَ عن محمد وأجزل صِلَتى .

قلت : وأنا أشك فى صدق هذه القصة من أولها إلى آخرها ، ولا أستثنى منها إلا خبر دعوة المتوكلِ الجاحظَ لتأديب بعض ولده . وأما غير ذلك فإنى أراه من وضع الجاحظ وتلفيقاته ، ومن منتزعات خياله . على أنه قد ثبت ثبوتاً لا يقبل الشك أن الجاحظ كان له سهم نافذ فى وضع القصص

على أنواعها حتى النوع « التراجيدى » المؤثر ، ذلك الفن الذى هو من مفاخر كتاب أوربا فى هذا العصر

٢

وقال : أتيت أبا الربيع الغَنَوِىَّ ، وكان من أفصح الناس وأبلغهم ، ومعى رجل من بنى هاشم ، فقلت : أأبا الربيع ههنا ؟ فخرج إلىَّ وهو يقول خرج إليك رجل كريم ، فلما رآى الهاشمىَّ استحيا من فخره بحضرته فقال أكرمُ الناس رَدِيفاً ، وأشرفهم حَليفاً[1] . فتحدثنا مَلِيًّا فنهض الهاشمىُّ فقلت :

يا أبا الربيع ، مَن خَيْرُ الخلق ؟

فقال : ألناسُ ، واللهِ

فقلت : ومن خيرُ الناس ؟

فقال : ألعربُ ، والله

فقلت : فمن خيرُ العرب ؟

فقال : مُضَرُ ، والله

فقلت : فمن خيرُ مُضَر ؟

فقال : قَيْسٌ ، والله

فقلت : فمن خيرُ قيسٍ ؟

فقال : يَعْصُرُ ، والله

فقلت : فمن خير يعصر ؟

فقال : غَنِىٌّ ، والله

---

(١) يريد أن أبا مرثد الغنوى كان رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان حليف حمزة بن عبد المطلب

فقلت : فمن خير غنى ؟

فقال : المخاطب لك ، والله

فقلت : أفأنت خير الناس ؟

فقال : نعم ، إى والله

فقلت : أيسرك أن تحتك بنت يزيد بن المهلب ؟[1]

---

(١) هو أبو خالد يزيد بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى . أحد أمراء الدولة المروانية، وقائد من قوادها العظام ، شهد مع أبيه المهلب حروب الجابرة من الخوارج فأبلى فيها بلاء حسنا ، وكان أبوه يعتمد عليه فى كبريات الوقائع ويقدمه ويؤثره لما كان معروفا به من القوة والشجاعة ومصارعة الأبطال وجودة التدبير ، وكان مع هذا جوادا سمحا كريما لا يرد سائلا ولا يحرم عافيا . وقد ولى خراسان بعد أبيه وسنه ثلاثون سنة ثم عزله عبد الملك بمشورة الحجاج لأنه كان له مبغضا، مع أن أخته كانت تحت الحجاج . وكان السبب فى بغض الحجاج له خرافة نبأه بها أحد المشعوذين إذ قال له : إن الذى يلى الأمر بعدك يسمى يزيدا . فلم ير أمامه من يليق بذلك إلا يزيد بن المهلب ، فكان ذلك داعيا إلى بغضه له وحبسه إياه وتعذيبه . ثم هرب يزيد من محبسه وذهب إلى الشام مستشفعا بسليمان بن عبد الملك فشفع له الى الوليد فعفا عنه وأمنه . ولما أفضت الخلافة إلى سليمان ولاه خراسان فافتتح جرجان ودهستان وغيرهما من البلاد التى لم تكن فتحت من قبل . ثم أقبل بغنائمه يريد سليمان فبلغه موته فمال إلى البصرة فخادعه عدى بن أرطاة حتى أوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز فحبسه فهرب من حبسه ، ثم جمع جموعا وخرج بها على يزيد بن عبد الملك فسير إليه الجيوش بقيادة مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد ، وهما بطلا بنى أمية ، فقاتلاه بالعقر من أرض بابل . فمات يزيد بالمعركة مختنقا بغبارها سنة ١٠٢ هـ ٧٢٠ م

فقال : لا ، والله

فقلت : ولك ألف دينار ؟!!

فقال : لا ، والله

فقلت : فألفا دينار ؟ !!

فقال : لا ، والله

فقلت : ولك الجنة ؟!!

فأطرق برأسه ثم قال : على ألا تلد منى ؟ وأنشد :

تَأبَى لِأَعْصُرَ أَعْرَاقٌ مُهَذَّبَةٌ ... مِنْ أَنْ تُنَاسِبَ قَوْمًا غَيْرَ أَكْفَاءِ

فَإِنْ يَكُنْ ذَاكَ حَتْمًا لا مَرَدَّ لَهُ ... فَاذْكُرْ حُذَيْفَ فَإِنِّي غَيْرُ أَبَّاءِ (١)

٣

وقال : دعوت نجارا كان عندى لتعليق باب ثمين كريم ، فقلت له : إن إحكام تعليق الباب شديد ، ولا يُحسنه من مائة نجارٍ نجارٌ واحد ، وقد يُذكر بالحذق فى نجارة السقوف والقباب وهو لا يُكمل تعليق باب على تمام الإحكام ، والقبابُ عند العامة أصعب ، ولهذا أمثال : فمن ذلك أن الغلام والجارية يشويان الجدْىَ والحملَ وهما يُحكمان الشىَّ ، وهما لا يحكمان شَيَّ جَنْبٍ ، ومن لا علم له يظن أن شىَّ البعض أهون من شى الجميع ؟!! فقال لى : قد أحسنت حين أعلمتنى أنك تبصر العمل ، فإن معرفتك تمنعنى من التشقيق . فعلقه فأحكم تعليقه . ثم لم يكن عندى حَلْقةٌ لوجه

---

(١) هو حذيفة بن بدر الفزارى . وإنما ذكره من بين الأشراف لأنه أنسبهم به نسبا ، وذلك أن يعصر أو أعصر هو ابن سعد بن قيس . وهؤلاء بنو ريث بن غطفان بن سعد بن قيس

الباب إذا أردت إصْفاقَهُ ، فقلت له : أكره أن أُجلسك إلى أن يذهب الغلام الى السوق ويرجع ، ولكن اثقبْ لى موضعها ؟ فلما ثقبه وأخذ حقه وَلأنى ظهره للإنصراف والتفت إلىّ فقال : قد جَوَّدْتُ الثقبَ ولكن انظر أى نجار يدق فيه الرزة فإنه إن أخطأ بضربة واحدة شق الباب . فعلمت أنه يفهم صناعته فهماً تاماً

٤

وقال : قلت لِعُبَيْدِ الكلابىِّ : أيسرك أن تكون هجيناً[1] ولك ألف دينار ؟

فقال : لا أحب اللؤم بشئ

فقلت : إن أمير المؤمنين ابنُ أمَةٍ ؟

فقال : أخزى الله من أطاعه ؟!

فقلت : نبيًّا الله إسماعيل ومحمد ابنا أمَةٍ ؟

فقال : لا يقول هذا إلا قَدَرِىٌّ

فقلت : وما القدرى ؟

فقال : لا أدرى ، إلا إنه رجل سوء ؟ ! !

قلت : لعله يريد بأمير المؤمنين « المعتصم » فإن أمه جارية ، وكانت تسمى ماردة . ومن المعروف أن إسماعيل إنما جاء لابراهيم عليهما السلام من جاريته المصرية هاجر . ومحمد رسول الله من سلالة إسماعيل ، ومن هنا قال إن أمهما أمة

---

(١) الهجين من أبوه عربى خالص وأمه أمة

٥

وأراد الجاحظ زيارة محمد بن عبدالملك الزيات فدخل عليه وقد افتصد فقال له : أدام الله صحتك ، ووصل غبطتك ، ولا سلبك نعمتك

فقال له ابن الزيات : ماذا أهديت إلينا يا أبا عثمان ؟

فقال : فكرت فى شئ أهديه إليك، فإذا كل شئ عندك ، فلم أر أشرف ولا أطرف من كتاب سيبويه ، بخط الكسائىّ وعَرض الفرّاء . وقد اشتريته من ميراث الفرّاء .

فقال : والله ما أهديت إلىّ شيئاً أحب منه !

٦

وقال : ما أخجلنى أحدٌ إلا امرأتان ، رأيت إحداهما فى العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها

فقلت لها : إنزلى كلى معنا ؟

فقالت : إصعد أنت حتى ترى الدنيا ! !

وأما الأخرى فإنها أتتنى وأنا على باب دارى فقالت : لى إليك حاجةٌ وأريد أن تمشى معى ؟ فقمت معها إلى أن أتت بى إلى صائغ يهودى وقالت له : مثل هذا ؟ ! ! وانصرفت . فسألتُ الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إلىّ بفص وأمرتنى أن أنقش لها عليه صورة شيطان ! فقلت لها : يا ستى مارأيت الشيطان؟!! فأتت بك وقالت ما سمعتَ ؟ ! !

٧

وقال : سألنى بعضهم كتاباً بالوصية إلى بعض أصحابى ، فكتبتُ له رقعة وختمتها ، فلما خرج الرجل من عندى فضها فإذا فيها :

« كتابي إليك مع من لا أعرفه ، ولا أوجب حقه : فإن قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك »

فرجع الرجل إلى منزله فقلت له : كأنك تضمنت ورقة ؟

فقال : نعم !

فقلت : لا يضيرك ما فيها فإنه علامة لي إذا أردت الصنيعة بشخص !!

فقال : قطع الله يديك ورجليك ولعنك !

فقلت : ما هذا ؟!!

فقال : هذا علامة لي إذا أردت أن أشكر شخصاً !

٨

وقال : كان رجل من أهل السواد[1] يتشيع ، وكان طريحاً ، فقال له ابن عم له : يعني أنك تبغض عليّاً ؟ ووالله لئن قلت ذلك لتردن عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك !

فقال : والحوض في يده يوم القيامة ؟

فقال : نعم

فقال : وما فعل هذا الرجل الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف ، وفي الآخرة بالعطش ؟ !!

فقيل له : أتقول هذا مع تشيعك وميلك ؟!!

فقال : والله لا تركت شتيمة ولو قتلتني في الدنيا ، وأدخلتني النار في الآخرة ... ؟

---

(١) أهل السواد هم فلاحو أرض العراق وزراعها

٩

وقال : نزلت على صديق لى فلم آكل عنده لحما ، فعرّضتُ له فقال : إنى لا أكثر من اللحم منذ سمعت الحديث « إنَّ اللهَ يكرهُ البيتَ اللحِمَ » فقلت : يا أخى ، إنما أراد البيت الذى تؤكل فيه لحوم الناس بالغيبة ؟! .. فلم يؤخر حضور اللحم من ذلك اليوم !

قلت : وهذه إحدى معايب الجاحظ وتلاعبه بالكلام حتى يصرفه عن وجهه ، فإن الحديث متواتر على الصحة . ومهما يكن من شئ فهى من ألطف النكات .

١٠

وقال : أتيت منزل صديق لى فطرقت الباب فخرجت إلىّ جارية سندية :

فقلت : قولى لسيدك : ألجاحظُ بالباب ؟

فقالت : أقول الجاحد بالباب ؟ — على لغتها !

فقلت : لا ، قولى له : ألجدَقىُّ بالباب !

فقالت : أقول : ألحلقى يانباب ؟

فقلت : لا تقولى شيئاً . ورجعت !!

١١

وقال : رأيت أربعة أشياء لم أر مثلهن :

رأيت سائلا يسأل فى الحمام ، ويأخذ مواعيد مَن فيه إلى أن يخرجوا !

ورأيت معلماً يُعلّم الصبيان القرآن ، والصبايا الغِناء !

ورأيت حجاماً بالكوفة يحجم بنسيئة إلى الرّجعة لشدة إتقانه بها !(١)

(١) الرجعة : هى عقيدة قوم كانوا يقولون بأن الانسان بعد وفاته لا بد عائد إلى هذه الدار ، طال الزمن أو قصر . وكان السيد الحميرى الشاعر

ورأيت حمالين يحملون جنازة فكلما أعيوا وضعوا عن رؤسهم إلى أن بلغوا شفير القبر !

١٢

وقال : كان يحضُر إليَّ رجلٌ فصيح من العجم ، فقلت له : هذه الفصاحة ، وهذا البيان ، لو ادعيت فى قبيلة من العرب لكنت لا تُنازَع فيها ؟ فأجابنى إلى ذلك . فجعلت أحفظه نسيا حتى حفظه وهذَّهُ هذًّا . فقلت له : ألآن لا تَتِه علينا ؟ فقال : سبحان الله ! إن فعلت ذلك فأنا إذاً دَعِيٌّ ؟ !!

١٣

وقال : جاءنى يوماً بعض الثقلاء فقال : سمعت أن لك ألف جواب مُسكت ، فعلمنى منها ؟

فقلت : نعم

فقال : إذا قال لى شخص : يا زوج القحبة ، يا ثقيل الروح ، أى شئ أقول له ؟

فقلت : قل له : صدقت ؟ ! !

١٤

وقال : وقفت أنا وأبو حرب على قاصٍّ فأردت الولع به ، فقلت لمن حوله : إن هذا رجل صالح لا يحب الشهرة . فتفرقوا عنه . فنظر إليَّ وقال : حسبك الله ؟ إذا لم يجد الصياد طيرا كيف يمد شبكته ؟ !

يقول بهذا القول ، فجاءه رجل يسأله أن يقرضه مائة دينار على أن يردها إليه بعد الرجعة ، فقال له السيد : ومن يضمن لى أنك لن تعود حمارا ؟!

١٥

وقال : مَرِض عَلِيُّ بنُ عُبيدةَ الرَّيحانيُّ فدخلت عليه عائدا وقلت له : ماتشتهي يا أبا الحسن ؟ فقال : عُيون الرقباء ، وألسن الوُشاة ، وأكباد الحساد !

١٦

وقال : ماغلبني أحدٌ قط إلا رجل وامرأة :

فأما الرجل فإني كنت مجتازاً في بعض الطريق فاذا برجل قصير بطين كبير الهامة طويل اللحية مُؤْتَزِرٍ بمِئزر و بيده مشط يمشطها . فقلت في نفسي : رجل قصير بطين أَلْحَى ! فاستزريته ، فقلت : أيها الشيخ ، لقد قلت فيك شعراً ! فترك المشط من يده وقال : قل . فقلت :

كأنَّكَ صَعوَةٌ في أَصْلِ حُشٍّ ... أصابَ الحُشَّ طَشٌّ بعدَ رَشِّ[1]

فقال : إسمع جواب ما قلت . فقلت : هات ! فقال :

كأنَّكَ جُندبٌ في ذَيلِ كبشٍ ... تَدَلدَلَ هكذا والكبشُ يَمشِي[2]

وأما المرأة فإني كنت مجتازاً في بعض الطريق فإذا أنا بامرأتين ، وكنت راكبا على حمارة ، فضربت الحمارة ، فقالت إحداهما للأخرى : وَيْ ! حمارة الشيخ تضرط !! فغاظني قولها فقلت لها : إنه ما حملتني أنثى قط إلا ضرطت . فضربت بيدها على كتف الأخرى وقالت : كانت أم هذا منه تسعة أشهر في جهد جهيد ؟ !!

١٧

وقال أبو بكر محمد بن إسحق : قال لي إبراهيم بن محمود ، ونحن ببغداد :

---

(١) الصعوة : عصفورة صغيرة كثيرة الصفير . الحش : بيت الخلاء . الطش : المطر الكثير . الرش : المطر الخفيف

(٢) الجندب : الجرادة

ألا ندخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ فقلت : مالى وله ؟ فقال : إنك إذا انصرفت إلى خُراسان سألوك عنه ؛ فلو دخلت إليه وسمعت كلامه ؟ فدخلنا عليه فقدم لنا طبقا عليه رطب، فتناولت منه ثلاث رطبات ثم أمسكت، ومر فيه إبراهيم ، فأشرت إليه أن يمسك . فرمقنى الجاحظ وقال لى : دعه يافتى فقد كان عندى بعض إخوانى فقدمت إليه الرطب فامتنع فحلفت عليه فأبى إلا أن يبر قسمى بثلثمائة رطبة ! !

١٨

وقال ابن أبى الدَّيَّان المحدث : حضرتُ وليمةً حضرها الجاحظ ، وحَضَرَتْ صلاةُ العصر وما صلى الجاحظ ، فلما عزمنا على الإنصراف قال الجاحظ لرب المنزل : إنى ما صليت لمذهب أو لسبب أخبرك به ! فقيل له : ما أظن أن لك مذهباً فى الصلاة إلا تركها !

١٩

وقال أبو العيناء : كان الجاحظ يأكل مع محمد بن عبد الملك الزيات فجاؤا بفالوذجة [١] ، فتولع محمد بأبى عثمان الجاحظ وأمر أن يُجعل من جهته مارق من الجام ، فأسرع فى الأكل فتنظف ما بين يديه ، فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك قبل سماء الناس ؟!! فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً ! !

٢٠

وقال يموت بن المزرِّع : سمعته — يعنى الجاحظ — يقول : رأيت رجلا يروح ويغدو فى حوائج الناس فقلت له : قد أتعبت بذلك بدنك وأخلقت ثيابك ، وأعجفت بردونك ، وقتلت غلامك ، فمالك راحةٌ ولاقرار

---

(١) الفالوذجة : هى الفالوذ ، وهى حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل . بالوذة

فلو اقتصدت بعض الاقتصاد ! ! فقال : سمعتُ تغريد الأطيار فما طربت طربى لنغمة شاكر أوليته معروفاً ، أو سعيت له فى حاجة !

٢١

وقال الجاحظ : نسيت كنيتى ثلاثة أيام فسألت أهلى : بماذا أُكنَّى ؟ فقالوا لى : أبو عثمان !

٢٢

ومن أطرف ما يروى فى هذا الباب ما تحدث به أبو على الحسن بن محمد الأنبارى الكاتب قال : مات عندنا بالأنبار فلان . وأسماه . وكان عظيم النعمة ، وافر المُرُوءة[1] كثير الثياب . وكان لكثرتها يجعل كل فن منها فى عدة صناديق . فكانت دراريعه الدِّبيقيَّة[2] مفردة ، والدراريع الديباج مفردة ، وكذلك القُمص ، والسراويلات ، والجباب ، والطيالس والعمائم . قال : وكان له بنو عم وأم وَلَد[3] قد تزوجها ، فلما مات أخرجت جميع آلاته وقماشه وثيابه إلا اليسر ، من الدار ، فخبأته . وذهب عليها صناديق السراويلات فلم تُخرجها ، فجاء بنو العم فختموا على الخزائن ، فلما انقضت أيام المصيبة فتحوها فوجدوها أخلى من فؤاد أم موسى . فخاصموها

---

(١) المروءة : هى كمال الرجولية ، وهى آداب نفسية تحمل مراعاتها الانسان على التزام محاسن الأخلاق وجميل العادات ، والظهور أمام الناس بحسن السمت ونظافة الثياب وتخيرها حتى لا تنبو العين عن شىء منها .

(٢) الدبيقية نسبة إلى بلد مصرية كانت بين الفرما وتنيس ، وكانت مشهورة بصنع الثياب والعمائم من رقيق النسيج وتوشيتها بالذهب ، وقد تبلغ قيمة الذهب فى العمامة الواحدة خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل

(٣) أم الولد : هى الجارية التى كانت تتخذ للتسرى حتى إذا حملت أعتقت وعقد عليها

إلى قاضي البلد ، فلم تنقطع الخصومة . فدخلوا الحضرة[١] فتظلموا ، فأشخصت وحملت إلى القاضي أبي جعفر بن البهلول — ووُقِّع إليه بالنظر فيما بينهم على طريق المظالم[٢] — فحضروا عنده وأخذ يسائلهم عن دعواهم ، وهي منكرة جميعها فقالوا له : أيها القاضي ، فلان أنت أعرف الناس بمروءته وثيابه وما كنت تشاهده له ، وكله كان في يدها له ، وساعة مات ختمنا خزائنه ، وهي كانت في الدار ، ولما فتحناها لم نجد له فيها إلا عدة صناديق فيها سراويلات ، وقطعاً يسيرة من ثيابه ! فأين مضى هذا ومن أخذه ؟ وما السبب في عظم السراويلات وقلة الثياب ؟ ! قال : فأقبلت الجارية محتدة كأنها قد أعدت الجواب ، فقالت : أعز الله القاضي ، أما سمعت ما حكاه الجاحظ من أن رجلا كان يعشق الهواوين فجمع منها مائتي هاون ؟ ! هذا كان يعشق السراويلات ... ؟ ! قال : فضحك القاضي أبو جعفر وانفض المجلس من غير شيء فما استنصفوا منها بعد ذلك !

---

(١) الحضرة : هي عاصمة الملك ، ويراد بها هنا بغداد

(٢) كانت محاكم المظالم في العهد القديم أشبه بالمحاكم المدنية الآن ، مع فارق كبير بين صفات من كان يتولى النظر في تلك المظالم ، وبين من يتولى المحاكمات المدنية الآن .

الفصل الحادى والعشرون

فى

شذور من كلماته

ليس فى الإمكان حصر ما ذهب من كلمات الجاحظ مذهب الأمثال، ولا ماسار منها مسير الشمس ، فإن كتبه ورسائله قد حفلت بهذا النوع من الكلام ، وحشدت بهذا الضرب من القول الموجز والبيان المعجز ، وإذا فاتنا استقصاء ذلك فلن يفوتنا الإلماع إليه، وإيراد شذور منه، فمن ذلك قوله:

١

يجب للرجل أن يكون سخيا لا يبلغ التبذير ، وشجاعا لا يبلغ الْهَوَج ومحترسا لا يبلغ الجبن ،وماضيا لا يبلغ القِحَةَ ، وقوالا لا يبلغ الْهَذَرَ ، وصموتا لا يبلغ العَىَّ ، وحليما لا يبلغ الذل ، ومنتصراً لا يبلغ الظلم ، ووقوراً لا يبلغ البلادة ، ونافذاً لا يبلغ الطيش

٢

ليس جُهد البلاء مَدَّ الأعناق وانتظار وقع السيف ، لأن الوقت قصير، والحين مغمور . ولكن جهد البلاء أن تظهر الخلَّة ، وتطول المدة ، وتعجز الحيلة ، ثم لا تعدم صديقا مؤنبا ، وابن عم شامتا ، وجاراً حاسداً ، ووليا متحول عدوا ، وزوجة متخلفة ، وجارية مسبعة، وعبدا يجفوك، وولداً ينتهرك

٣

وقال مرة للسَّدُوسِىِّ : إذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت قحبة ؟

فقال السدرى : وكيف ؟!!

قال : لأنها تأخذ الدراهم ، وتمتع بالناس والطيب ، وتختار على عينها من تريد ، والتوبة معروضة لها متى شاءت !

فقال السدرى : فكيف عقل العجوز ؟

قال : هى أحمق الناس وأقلهم عقلا

٤

كل عشق يُسمى حبا ، وليس كل حب يسمى عشقا . لأن العشق اسم لما فضل عن المحبة ، كما أن السَّرَفَ اسم لما جاوز الجود ، والبخل اسم لما قصر عن الاقتصاد ، والجبن اسم لما فضل عن شدة الاحتراس ، والهوج اسم لما فضل عن الشجاعة

٥

وقال : تسعة موجودة فى تسعة . أخفةُ فى الصُّمِّ ، والْهَوَجُ فى الطوال ، والعُجب فى القِصار ، والنبل فى الرّبعة ، والملاحة فى الحُول ، والذكاء فى الخُرس ، والحفظ فى العُميان ، والثقل فى العور ، والنشاط فى العُرج !

٦

وقال : أربعة أشياء ممسوخة : أكل الرز البارد ، والنيء فى الماء ، والقُبل على النقاب ، والغِناء من وراء الستار !

٧

وقال : أجمع الناس على أربع : أنه ليس فى الدنيا أثقل من أعمى ، ولا أبغض من أعور ، ولا أخف روحا من أحول ، ولا أقود من أحدب

٨

وقال : إذا سمعتَ الرجلَ يقول : ما ترك الأولُ للآخر شيئاً فاعلم أنه ما يريد أن يُفلح

٩

وقال : مَن أَلَفَّ فقد استهدف ، فإن أحسن فقد استُظرف ؟ و إن أساء فقد أستقذف

١٠

وقال أبو زيد البلخي : ما أحسنَ ما قال الجاحظ : عقل المنشي مشغول ، وعقل المتصفح فارغ ؟!!

١١

وقال الجاحظ : من حفظ ماله فقد حفظ الأكرمَين : الدين ، والعرض

١٢

وقال : إحذر من تأمن ، فإنك حَذِرٌ ممن تخاف

١٣

وقال : إن تهيأ لك في الشاعر أن تبره وترضيه ، و إلا فاقتله !!!

قلت : إن الجاحظ ، مِن أجل بغضه لبشار بن برد ومَن كان على نهجه من الشعراء الذين كانوا يهاجون المتكلمين ورجال المعتزلة ، يقول هذه القولة ويحرض بها من طرف خفي كلَّ ذي نفوذ وسلطان على اغتيال الشعراء !! وهل في الإمكان إرضاء كل شاعر وقطع لسانه بالعطايا والهبات ، في كل وقت وفي كل آن ؟! هذا ما لا يستطيعه إنسان ، كائناً من كان ! ولكنه كان لبقاً في تحريضه ، لطيفاً في حثه و إيعازه . وقد أذكرتني هذه الكلمةُ كلمةً أخرى قريبة الشبه منها سمعتها من الشيخ علي يوسف[1] رحمه الله ، في بعض حديث

(١) هو الكاتب البارع القدير ، والصحفي المصري الماهر المقطوع النظير ، الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد ، ومفخرة الصحافة المصرية ،

كان لى معه وهى قوله : « صاحب الكاتب كحامل العقرب لايدرى متى تلدغه » فقلت له : ولم اختصصت الكاتب بهذا دون غيره ؟ فقال : لأن الكاتب الأديب أشد فطنة وأدق ذهنا وأسرع التقاطاً وأكثر تقديراً لأحوال الناس ومرامى أغراضهم، من سواه ، فهو إن أرضيته وقمت بمطالبه، رضى عنك وقال فيك خير ما يعلم ، وإن أغضبته وقصرت فى إبلاغه أمانيه ، ثار بك وقال فيك شر ما يعلم وما لايعلم . وما الكتاب فى هذا العصر إلا خلفاء الشعراء فى العصر الأول . فقلت له : إن الرضا عند الإحسان ، والسخط عند الإساءة، طبيعة فى الجبلة الانسانية ، وغريزة فى كل ما ذرأ الله من خلق، أما سمعت قول الشاعر :

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللِّسَانَ مُوَكَّلٌ بِمَدْحِ كِرَامٍ أَوْ بِذَمِّ لِئَامِ ؟ !

فقال : نعم . ولكن الشعراء والكتاب أشد إحساساً وأرق عاطفة وأنفذ نظراً وأكثر عرفانا بمقادير أنفسهم ، من كل من عداهم .

بل أحد مفاخر مصر فى عهدها القريب. ولد بقرية بلصفورة ، وتلقى علومه بها على الشيخ حسن الهوارى ، ثم حضر إلى القاهرة والتحق بالأزهر . وكان يقول الشعر يمدح به بعض الكبراء استدرارا لعوارفهم . ثم صبت نفسه إلى الكتابة فى الصحف، فشارك الشيخ أحمد ماضى فى تحرير جريدة الآداب ، وبعد قليل استقل بها . ثم أنشأ جريدة المؤيد، وفيها ظهرت براعته، وذاعت شهرته وانتشر صيته فى أقطار الأرض. وصار المؤيد بحق جريدة العالم الاسلامى . وما زالت تدفع به همته وتسمو به مواهبه إلى أن أصبح محشى الجانب من السلاطين والأمراء، ومن فى طبقتهم ، فأهدوا إليه نياشين الفخار ، ومنحوه رتب الاعتبار . ثم صاهر بيت السادات العريق فى الحسب ، وصار شيخا للسادات الوفائية . وكان له فى المؤيد جولات قلم كانت تقيم السلطنة العثمانية وتقعدها ، وترضيها وتسخطها . وكان المؤيد مدرسة تخرج بها الكثير من فحول الكتاب وأكابر الأدباء الذين يقودون الحركة الفكرية ، ويقبضون على زمام النهضة القلمية، فى هذا العصر. توفى بالقاهرة سنة ١٣٣٣ هـ ١٩١٣ م